

في ظلال الرِّيْضِ

١

قِرَايَةُ

الْحَمْدُ

الطبعة
الثالثة

كَمَالُ السَّيِّدِ



اسم الكتاب: اسمه أحمد
تأليف: كمال السيد

الطبعة الثالثة: فبراير ٢٠٢٢ - شعبان ١٤٤٣ هـ
إعداد ونشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر
البريد الإلكتروني: kaleemat.pub@gmail.com

📷 kamal.alsayeed

كلمات



الموقع الرسمي

الفهرس

وقد ولد الربيع	١٢
القاعدة الجغرافية للتاريخ	١٤
الصبر العظيم	١٥
وترحل الأم	١٨
شيخ البطحاء	١٩
في كنف فاطمة	١٩
حلف أخلاقي	٢٠
الجبل والسماء	٢١
يوم اتصلت السماء بالأرض	٢٣
العودة	٢٥
الإيمان	٢٦
فأس إبراهيم	٢٨
الشمس والقمر	٢٨
في رحاب البيت العتيق	٣١

٣٥	في الجانب الآخر من البحر.....
٣٦	سنوات الرماد.....
٣٨	فقد الأحبة غربة.....
٤١	الحبيب الآخر.....
٤١	العروج.....
٤٢	إلى الطائف.....
٤٦	يثرب.....
٤٧	وادي العقبة.....
٥٠	الهجرة.....
٥١	المؤامرة.....
٥٢	الفداء.....
٥٣	الطريق إلى يثرب.....
٥٥	الرحلة.....
٥٨	الهاجس اليهودي.....
٥٩	الطريق الدامي.....
٦٠	آية السيف.....
٦٣	الطريق إلى آبار بدر.....
٦٥	الأنباء المثيرة.....
٧١	المسألة اليهودية.....
٧٤	هواجس الثأر.....

٧٨	فوق سفوح «أحد»
٨٣	الدرس الكبير
٨٦	ردّ الاعتبار
٨٨	محاولة الاغتيال
٩٣	عام الحسم
٩٤	الأحزاب
٩٨	الهاجس اليهودي
١٠٣	تحركات يهودية
١٠٥	رياح النصر
١٠٧	حصاد الغدر
١٠٩	الطريق إلى مكة
١١٨	ملوك العالم
١٢٠	حصون السامري
١٢٤	انهيار الوثنية
١٢٦	العدوان على السلام
١٣٢	وجاء الفتح
١٣٧	ويوم حنين
١٤٦	في الوادي
١٤٨	لقاء مع الأنصار
١٥١	وقبل أن ينطوي العام

١٥٣	تبوك
١٥٦	المجد للإسلام
١٥٨	الوفود
١٦٠	الحج الأكبر
١٦٣	البلاغ المبين
١٦٧	أشعة الغروب
١٦٩	إذا الشمس كورت

دعني أضع كفي في كفّيك علّ الجمر يبرد
دعني أطف في السدرة الخضراء في المأوى وأبعد
دعني أشمّك يا محمد
دعني أردد اسمك الحلو المجرّد
دعني أردد: يا محمد يا حبيبي يا محمد يا رسول الله

في واد ضيق طويل وعلى مقربة من بئر زمزم، نشأت مكة قرية صغيرة لتصبح بعد عقود من السنين «أم القرى».

ولقد ظلت مكة بعيدة عن عبث الفاتحين، قروناً مديدة تتألق مجدداً بين مدن الحجاز وقراه، ففي أرضها البيت العتيق.. البيت الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل.

حتى إذا أطلّ عام ٥٧٠ من الميلاد، فكر الأحباش الذين احتلوا اليمن في القرن السادس الميلادي في السيطرة على الطريق البري للتجارة. دعماً لموقف حلفائهم الرومان، فيما اتجه الفرس إلى تحريض يهود اليمن والنصارى المعارضين، وتعزيز تواجدهم، ليستيقظ الحجاز على دوي الصراع بين الإمبراطوريتين.

وهكذا وجدت مكة نفسها في مهب الإعصار القادم من اليمن، فقد زحفت جيوش الأحباش يتقدمها فيل مدّرب من أجل تدمير بيت الله؛ بعد أن عجز «القليس»^(١) من اجتذاب أنظار العرب فظلت قوافلهم تهوي في بطون الأودية في مواسم الحج.

كان عبد المطلب قد تخطى السبعين آنذاك؛ شيخ وضيء القسّمات في عينيه انعكاسات من بريق النبوءات الغابرة مذ وطأت

١- كنيسة فخمة بناها أبرهة في اليمن في محاولة لتوجيه أنظار العرب إليها بدل الكعبة.

قدم ابراهيم الخليل «وادي غير ذي زرع».

واعتصم المكيون الذين تهيّبوا ضخامة الغزو برؤوس الجبال
ينظرون من بعيد الي الكعبة مهوى الافئدة، ويرددون كلمات قالها
عبد المطلب.

- للبيت ربّ يحميه.

وقف أبرهة قبالة الكعبة ينظر باستلاء الي جنوده وهم يتقدمون
لتدمير الكعبة، وسحق كرامة الانسان العربي الذي ظل محافظاً على
ولائه لإبراهيم. وفي تلك اللحظات المثيرة ظهرت في الافق سحابة
دكناء سرعان ما اسفرت عن اسراب كثيفة لطيور «أبايل» تحمل
بمناقيرها حجارة من سجيل.

وقد يتصور المرء مدى الدهشة والرعب الذي غمر الجنود، وهم
يتعرضون لقصف جهنمي رهيب، أحال قوّتهم إلى ضعف، ومرّغ
كبرياءهم بالوحد.

ورأى ابرهة غضب السماء يبدد أحلامه في قلب الحجاز، فامتلاّت
نفسه رعباً، كان يتفادى الحجارة المشتعلة دون جدوى، وولى الجيش
مذعوراً لا يلوي على شيء.

وشهدت مكة والطريق المؤدية إلى اليمن تساقط جثث الأحباش

كعصف مأكول، ومات أبرهة على بوابة صنعاء.

وفي ذلك العام ذاعت شهرة عبد المطلب حفيد إبراهيم وراعي البيت العتيق.

وقد ولد الربيع

ورأى عبد المطلب أن يزوّج ابنه عبدالله آخر الأبناء بعد أن بلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً.

واقترن الشاب الذي افتداه أبوه بمئة من الأبل^(١) بفتاة اسمها آمنة كريمة المحتد فأبوها سيّد بني زهرة.

وأقام العروسان عند أهل العروس استجابة لعادة عربية حينما يتم الزواج في بيت العروس.

ولما مضت ثلاثة أيام انتقلت الأسرة الصغيرة إلى منازل بني عبد المطلب.

وعندما انتهت الاستعدادات في رحلة قريش في الصيف غادر عبدالله مكة نحو الشام، إلى مدينة غزّة.

وقد استغرقت الرحلة شهوراً ليعود بعدها إلى أرض الحجاز، ويشاء

١- قصة النذر المعروفة

القدر أن يتوقف عند أخواله في مدينة يثرب، ولم يكن يدري أن هذه المحطة ستغدو مثواه الأخير.

وفجعت العروس بوفاة زوجها وكانت حاملاً، كما فجع أبوه عبد المطلب ومكة كلها بهذا النبأ.

وتأثر عبد المطلب لرحيل ابنه السريع، وهو الذي افتداه فداء لم تسمع به العرب من قبل.

لم يترك عبدالله سوى خمسة من الإبل وقطيعاً صغيراً من الغنم وجارية هي أم أيمن.

وتمرّ الشهور وتحين ساعة المخاض ليولد حفيد عبد المطلب؛ كان سيد مكة في رحاب الكعبة عندما بشر بميلاد الحفيد وفي تلك اللحظة تفجرت ينابيع الحب في قلب الجدّ. احتضن الشيخ حفيده وهتف:

- سمّيته محمداً

وانتقل الاسم العجيب يطوف منازل مكة، اسم جميل حلو، يشبه نغمة حالمة.. كيف ومض هذا الاسم في ذهن سيّد مكة، ويتساءل بعضهم:

- وأسماء الآباء.. والأجداد.. لماذا محمد؟!

تمتم الشيخ:

- ليكون محموداً في السماء وفي الأرض.

وهكذا اقترن ميلاد محمد بعام الفيل .. لقد هزمت عاصفة الشتاء وولد الربيع في موسم الربيع.^(١)

القاعدة الجغرافية للتاريخ

إذا كان للبيئة تأثيرها في طبيعة الانسان، فلقد أكسبت بيئة الحجاز، بتضاريسها ومناخها، وبمعالمها الجغرافية الإنسان العربي صفات عديدة.

فهو خفيف في وزنه، نحيف في بدنه، صبور في مواجهة المشاق
قنوع في طعامه، في فكره سرعة وبديهة، وفطنة وذكاء وخيال مشتعل،
وكبرياء وعزّة تتألق في عينيه السوداوين وشاعرية مرهفة، جعلته شغوفاً
بالحكمة والامثال.

لقد اسهمت هذه البيئة في صياغة جوانب كثيرة من شخصية
محمد ﷺ، ولم تكن الكاميرا التي ظهرت قبل أقل من قرنين موجودة
آنذاك لتنقل لنا صورة عن هذا الانسان العظيم.

١- ولد سيدنا محمد ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠م.

ولكن التاريخ الذي استيقظ مأخوذاً في سنة ٦١٠م قدّم لنا ملامح عن محمد وقد بلغ الذروة في نموّه الجسدي والفكري.

لم يكن فاحش الطول، كان ربعة وقد «جعل الخير كلّهُ في الربعة» أما بشرته فكان أزهر لونها؛ أي بيضاء ناصعة، لا تشوبها صفرة ولا حمرة. رجُل الشعر لا مسترسل ولا جعد، يشبه تموجات الصحراء، وكان يبلغ شحمه أذنيه، وقد بدت سوافه متألّثة.

واسع الجبين، بين حاجبيه فاصل لطيف، وعيناه نجلاوان، فإذا ابتسم أفر عن لآلي منضودة مرتبة.

فإذا مشى بدا كزورق ينساب في بحيرة هادئة وكان يقول:
أنا أشبه الناس بآدم، وكان أبي إبراهيم أشبه الناس بي.

الصبر العظيم

نشأ محمد ﷺ في أحضان جدّه عبد المطلب فكان شغله الشاغل، لكأن الصبي ورث الحب العظيم عن أبيه الراحل.

ورأى سيد مكّة ان ينشأ حفيده في الصحراء والبادي، ولقد كانت نساء البادية يقصدن أم القرى في السنوات العجاف يرضعن أولاد الأشراف لقاء أجر معين.

وكانت المرضعات يقصدن البيوت الثرية طمعاً في العطاء فكان
اليتم آخر ما يفكرون فيه.

وجاءت حليلة تبحث عن وليد، فإذا هي ترى محمداً، ولعلها ارادة
السماء أن يتفجّر نبع الحب في قلب «السعدية» لتحتضن الوليد
اليتم، وتنطلق به إلى البادية.

ومر عامان تدفق فيهما الخير في تلك البقعة من دنيا الله، فإذا ذلك
الصبي يمن وبركة.

وتشعر حليلة بالحزن فلقد آن للصبي أن يعود إلى أمّه، وما يزال
ينبوع الحب يتدفق في قلبها.

وصادف ان اجتاحت الوباء مكّة، فخاف عبد المطلب على حفيده،
عاصفات الدهر، واستجابت آمنة لرغبة الجد، وهي ترى عيني حليلة
تبرقان فرحة بمحمد.

ويعود الصبي إلى البادية تملأ عينيه الصحارى وتبهره سماؤها
الزاخرة بالنجوم.

وتشعر حليلة بأن الصبي قد اضحى جزءاً من كيائها، حتى جعلها
تخشى عليه عوادي الزمن.

ويسأل الصبي أمّه بنت الصحراء عن إخوته في الرضاعة:

أين الشيماء وأنيسة، وعبدالله.

فتقول له:

- فدتك روعي انهم يرعون غنمنا.

وعندما رأت في قلبه رغبة أن يذهب معهم، فينطلق في الصحراء مع إخوته؛ رجّلت شعره وألبسته ثوباً جديداً، ولم تنس أن تضع في جيبه قلادة.

وتساءل الصبي عن سرّ القلادة، فقالت:

إنها تحميك من الشرور.

ويخلع محمد القلادة قائلاً:

هناك يا أمي من يرعاني ويحميني من الشرور.

وارتسمت علامة استفهام في عيني من وهبته الدفء واللين فيقول:

الذي خلّقني يحميني ويرعاني.

وتقف المرأة مشدوّهة أمام حكمة هذا الصبي المكي.

وينطلق محمد يملأ رثتيه بنسمات الصحاري مسروراً بأخيه واختيه، في صحراء لا تكاد تنتهي.

وترحل الأم

إن القدر لا يكف عن رمي السهام، ولقد شاء أن يختطف هذه المرأة
أمنة كما فعل ذلك بعبد الله؛ فلم يكد الصبي يبلغ من عمره ست
سنين حتى وجد أمّه في «الابواء»^(١) تنطفئ كما تنطفئ الشموع وهي لم
تكد تبلغ الثلاثين بعد.

ويرى سيّد مكة حفيده وحيداً قد فقد حنان الأمومة كما فقد حنان
الأبوة من قبل، فيتضاعف حبه حتى ليكاد يملأ كل كيانه.

ومرّ عامان آخران عاش خلالهما الصبي في ظلال وارفة يغمره الحب
وترعاه كف بيضاء نديّة، ولقد كان سيّد مكة وراعي بيت إبراهيم يرى
في حفيده مجداً وأي مجد، فطالما أصغى إلى بشارات الرهبان وكهنة
ذلك الزمان بأن نبياً قد أطلّ زمانه، فينظر إلى محمد فإذا هو الروح التي
تنطوي في أهابها جذوة النبؤات.

وعندما بلغ محمد الثامنة أغمض عبد المطلب عينيه بعد أن
اطمأن إلى مصير حفيده العظيم، وكانت آخر كلماته وهو يوصي قبيلته
قائلاً: لقد خلفت لكم الشرف العظيم.

انتخب سيّد مكة من بين أبنائه أبا طالب وكان شقيق عبد الله، ولقد

١- في الطريق بين مكة والمدينة، تبعد عن المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً

كان عبد مناف يحب أخاه الذي سافر إلى الشام ولم يعد، فانتقل حبه إلى ذكره الخالدة منه؛ ذلك الصبي الدافئ الذي تعلّم من قسوة الزمن الصمت والصبر والتأمل، كما تعلّم منه الأدب.

فإذا الحكمة تشع من عينيه، والجمال الحقيقي يتألق في جبهته الشّماء.

شيخ البطحاء

وبالرغم من أن الثراء صنع بسحره الزعامات، في ذلك الزمان وربّما في كل زمان ومكان، إلا أن أبا طالب كان استثناءً لقاعدة اعتادها الناس.

فلقد ورث أبو طالب زعامة مكّة بمجده الأخلاقي وبروحه الكبيرة حتى قال مؤسس البلاغة في دنيا العرب «إن أبي ساد الناس فقيراً وما ساد فقير قبله».

في كنف فاطمة

وفي منزل أبي طالب يجد الصبي اليتيم نبعاً يتدفق حناناً ومحبةً، فلقد وجد فاطمة بنت أسد أمّاً تمكنت أن تبدد في قلب الصبي كل مشاعر اليتيم فإذا به في منزل جعلت منه فاطمة عشاً دافئاً في زمن الزمهرير.

ولقد بلغ من رعايتها له أنها كانت تحرم أولادها من القوت في أيام القحط وتطعمه.

وبلغ من تقديره لها وحبه إياها أنها لما توفيت، انفجر باكياً وهو يتمتم:

- اليوم ماتت أُمي.

ثم كنفها بقميصه ونزل في قبرها واضطجع فيه، حتى إذا رأى الدهشة ترسم على وجه أصحابه قال:

- كانت أُمي؛ تجيع أولادها وتطعمني، وتشتعهم وما أحسست باليتم منذ لجأت إليها.

حلف أخلاقي

تخطى محمد العشرين من عمره عندما نشبت حرب «الفجار»^(١) فاشترك مع عمه أبي طالب في صدّ العدوان عن «كنانة».

قال له الكنانيون لما رأوا النصر في جبهتهم:

- يا بن مطعم الطير وساقى الحجاج، لا تغب عنا فإننا نرى بحضورك

١- معارك نشبت بين قبيلتي كنانة وقيس في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم، وسميت بالفجار لأنها انتهكت حرمة الشهر الحرام.

الغلبة والظفر.

فقال محمد:

- إذا اجتنبتكم الظلم والعدوان فإني، لا اغيب عنكم.

وعاهدوه على ذلك.

وأصبح محمد شخصية لها ثقلها في المجتمع المكي، فلقد كان سيداً وحصوياً.

وكانت مكة مدينة الأقوياء، وكان الأقوياء فيها هم الأثرياء، والثروة في بعض الأحيان بل في أغلبها شيطان يغوي صاحبها ويفسده.

وشهدت دار عبدالله بن جدعان تحالفاً أخلاقياً من أجل منع العدوان على الوافدين إلى مكة في مواسم الحج.

وكان محمد عضواً في ذلك الحلف الذي أنقذ «القتول»^(١) من فضيحة الاغتصاب والعار.

الجبل والسما

لقد علمت الحياة محمداً الصمت، والصمت محراب التأمل، يغوص

١- من أضواء نساء العرب كما ورد في كتب السيرة، وفدت مع أبيها الى مكة للحج فاخطفها منه بن الحجاج، ثم أجبر على تسليمها قبل ان يمسه بسوء.

فيه المرء إلى الأعماق البعيدة، أو يحلّق في السماء بأجنحة من نور.
وعندما يصغي المرء، عندها يتعلم لغة الصمت، يسمع في عوالمه
نداءات عجيبة.. نداءات تعجز الأذن الآدمية عن سبرها؛ فإذا الأشجار
تتحدث، وصخور الجبال، وإذا للأشياء لغتها.
وكانت الحياة في مكّة صاخبة طافحة بالضجيج؛ من أجل هذا
يَمّم محمد وجهه شطر الجبل؛ فكان حراء على ميعاد مع هذا الانسان.
وأصغى محمد إلى نداء الجبل؛ أن هَلِّم إلى الأعالي.. إلى القمم؛
فالإنسان يرى العالم بوضوح أكثر من فوق جبل.
ولم يكن حراء جارا قريباً لمكة، بل يبعد عنها ثمانية اميال عربية^(١)
وكان محمد يطوي تلك المسافات باتجاه الشمال ليأوي إلى غار في
سفوح الجبل لا يكاد يتسع إلا لثلاثة أشخاص.
وفي ذلك الغار ومن على سفوح حراء، كان محمد يتأمل الأرض
والسما.. يتأمل عالمه الكبير الذي يحيط به ويغوص في عالمه
الأكبر المودع في أعماق نفسه.
وربما في غمرة الصمت والليل؛ سطع سرّ الوجود بكل غموضه

١- يساوي الميل العربي ٢ كم بينما يعادل الميل الذي يستخدم في قياس المسافة حالياً ١,٦٠٠ كم.

وشفافيته، ولم يكن هناك من الأوهام والأباطيل ما يحجب ذلك عنه،
فاكتشف أجوبة طالما حيرت الإنسان منذ القدم وإلى أن يقضي الله
أمرًا كان مفعولاً.

وكانت الصحراء باتساعها وترامي أطرافها، والجبال بشموخها
وصمتها والنجوم في إغوارها التي لا يسبرها أحد عوناً له في اكتشاف
الحقيقة .. حقيقة الأشياء وجوهرها.

يوم اتصلت السماء بالأرض

هل كان الجوّ صحواً، فالشمس تغمر الأشياء بالدفء والنور؟ هل كان
غائماً فبدت السحب في زرقة السماء سفناً مبحرة؟ أم تراكمت فيها
جبال، وبحيرات وتلال وخلجان؟

هل اشتعلت البروق، ودوّت الرعود ذلك اليوم، هل كان محمد في
أحضان الغار أم على سفح الجبل بين صخور حراء.

لا يعلم المرء، ما حصل في تلك اللحظات المثيرة .. يوم هبط
الملاك يحمل كلمات السماء.

ربّما تكهرب الفضاء، غلالة شفافة من نور عجيب تغمر المكان.
نور لا ينتمي إلى ضوء الشمس، نور يشبه ما يسطع في النفوس

ويضيء القلوب.

غمر الصمت الأشياء .. تلاشت الأصوات .. انسحبت الأشياء إلى
مكنوناتها، ولم يعد محمد يسمع شيئاً .. سوى كلمات .. كلمات مزلزلة
تنفذ في أعماقه .. نفوذ الشعاع في البحيرة الرائقة:

- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْكَرِيمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾
صوت سماوي يكاد يستوعب الدنيا بأسرها...

- يا محمد! أنت رسول الله وأنا جبريل.

أمر عجيب! ماذا حدث؟ ما هذا الدوي الذي تردده الكائنات؟
لكأن صوت الملاك قد فجّر في مكنونها الأسرار كما تنفجر الصخور
عن ينابيع الحياة في لحظة تماس مع عالم بعيد .. عالم لا ينتمي إلى
الطبيعة في تكوينه وعناصره.

الأشواك وذرات الرمال، والشجيرات المتناثرة هنا وهناك، والصخور
التي تبدو صماء تردد بصوت له دوي:

- يا محمد! أنت رسول الله.

مرّت لحظات مشحونة بروح سماوية .. سمع فيها آخر الأنبياء في
التاريخ حديث الكائنات .. إنها لحظات الولوج في عالم الملكوت.

انطوت اللحظات لتعود الأشياء إلى سابق عهدها منذ آلاف السنين، وانطوت لحظة الاتصال بين رسول ملاك وإنسان .. رسول السماء، ورسول الأرض.

انحسرت تلك الشحنات التي غمرت المكان في لحظة اتصال لا يطيقها إلا قلب نبي.

لم يبق في كيان محمد سوى كلمات لا تنتمي إلى ابداع بشري كلمات قادمة من وراء الأفلاك .. كلمات يلهب لها الجسد الأدمي.

العودة

ويعود محمد إلى مكة لا يلوي على شيء. ينوء بحمى الرسائل.

جسده الملهب، ينتفض، حتى إذا التقى خديجة هتف:

- زملوني... زملوني...

ورأت خديجة جبهة زوجها العائد من الجبل مضيئة قد التمعت فيها حبات العرق كقطرات الندى مبهوراً بلحظة الاتصال .. الاتصال بين عالمين .. عالم الطبيعة، وعالم ما وراء المحسوسات .. أو الشهادة والغيب.

قالت خديجة مأخوذة بما سمعت:

- أبشريا بن العم .. إنني أرجو أن تكون نبياً.
- وأوى محمد إلى فراش دافئ، فيما انطلقت خديجة التي هزتها المفاجأة إلى «ورقة بن نوفل»^(١).
- هتف «ورقة»:
- قدوس قدوس .. لقد جاءه الناموس الأكبر الذي جاء موسى بن عمران.

الإيمان

آمنت خديجة فكانت أول امرأة تعتنق رسالة السماء، لقد عاشت خديجة مع زوجها خمس عشرة سنة، عرفت فيها دقائق زوجها .. عرفت روحه العظيمة التي تكاد تسع الدنيا، وعرفت أخلاقه الكريمة التي تكاد تسمو به في عالم الملائكة؛ لهذا آمنت به وشهدت أنه رسول من الله إلى الناس كافة.

إن للمرأة في قلب زوجها مكاناً، جزءً من الروح لا يعرف الانفصال. من أجل هذا كانت أول إنسان يبشره الرسول نبأ السماء.

وجاء علي ذلك الفتى الذي لا يعرف في الدنيا سوى ابن عمه

١- ابن عم خديجة اعتنق النصرانية في الجاهلية، وقرأ الكتب وسمع من اهل التوراة والانجيل، فقد بصره في شيخوخته.

محمد.

ومحمد لم يكن لعلي ابن عم ولا حتى أخ فحسب بل كان له أبا ومعلماً، أرايت كيف يتبع الفصيل أمه، يشعر بالذعر إذا لم يكن قربها، كذاك علي كان يتبع معلمه في الحياة.

طالما انطلق معه إلى حراء في السنين الخوالي، يتعلم من حركاته وسكناته ومن منطقته وصمته دروساً وأي دروس.

يقول مؤسس البلاغة في دنيا العرب:

ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالافتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد يئس من عبادته، إنك تسمع ما اسمع وترى ما أرى إلا إنك لست بنبي.

وقد قدّر لهذا الفتى أن يواكب من تاريخ الإسلام أكثر الفصول إثارة، حتى أصبح رمزاً من رموزه الخالدة.

وتمرّ سبع سنين ليس على وجه الأرض سوى ثلاثة نفر يعبدون الله

على دين الإسلام، دين إبراهيم.

فأس إبراهيم

إن للكلمة أحياناً فعل الخوارق، مثلما تنفجر عن الصخور ينابيع الحياة، مثلما تنفجر الأرض الهامدة عن براكين غضب؛ يكون للكلمة شأن؛ ربما تكون سيفاً بتاراً، نهراً دفاقاً، أجراساً ونواقيس، فأساً تحطم وجوه الآلهة المزيفة.

وهكذا قال محمد ﷺ: لا إله إلا الله.

وانخلعت قلوب الذين كفروا، فمئات الآلهة في خطر، لقد جاء محمد بدين جديد.. إنه يسفّه الآباء والأجداد.

إنه خطر على آلهة قريش، وآلهة قريش عبادة وتجارة. وكان على أبي جهل، وأبي سفيان، وأمّية بن خلف أن يتحركوا ما دامت مئات الآلهة المحدقة بالكعبة جامدة لا تتحرك. إنها لا تكف عن النظر ببلاهة إلى ما حولها ومن حولها.

الشمس والقمر

كانت الشمس تتألق في الأفق تغمر الكعبة بالنور، وقافلة قادمة من أرض اليمن، تنحدر من التلال القريبة وعبيد منهمكون بإنجاز أعمال

لأسيادهم؛ لهم بشرات مختلفة؛ هذا إفريقي وجهه يشبه لؤلؤة سوداء،
وذاك قادم من أرض الروم، وذلك عربي الملامح.

لقد ولدوا أحراراً ثم عصف بهم القدر.

كل شيء بدا جامداً في مكانه جمود الآلهة المحيطة بالكعبة، كل
شيء بدا ساكناً سكون المياه الأسنة في المستنقعات.

شيء واحد بدا يتحرك، تحرك النسغ في الأشجار يوم يطل الربيع..
قطرات مطر، تتساقط فوق المياه الراكدة، فتحيل السكون إلى دوائر
متموجة.

نسمة هواء تملأ الصدور ببشائر الحرية.

نهض سادة قریش وأثريائها، نهضوا غاضبين، فمحمد يهدد
أمجادهم، ألهمهم وكل امتيازاتهم بالخطر.

بدا وجه أبي جهل مسوداً من الحقد، والقلق يغمر وجه أبي سفيان،
عندما دخل وفد قریش منزل أبي طالب.

كان المنزل على بساطته يمثل قلعة المقاومة التي لجأ إليها
محمد ﷺ.

العيون تبرق حقداً، وقد أحرق الرجال بأبي طالب؛ هيمن صمت
مهيب. كان أبو طالب ينظر إليهم بؤد، ليدمر عاصفة الحقد.

قال أبو جهل:

- لن نصبر على شتم آبائنا وعيب آلهتنا، فقل لابن أخيك كيف
عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين.

كان الوضع متأزماً ينذر بوقوع حرب أهلية لا تبقي ولا تذر، وسوف
تشتعل الحرائق، وتتحول الكعبة إلى مسرح رهيب للقتال.

هكذا فكر أبو طالب، فأراد أن يخفف من توتر الوضع.

دخل على النبي وقال:

- يا بن أخي! ابق عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق

..

امتألت عينا الرسول بالدموع.. سوف يغادر هذه القلعة ليقاتل
وحده الذين كفروا، إنهم لا إيمان لهم.

بكى من أجل عمّه، لقد شاء الله أن يحارب هذا الرجل في شيخوخته
.. أن يدافع عن رسالة السماء.. أن يقف بوجه شياطين الأرض.

قال رسول السماء:

- يا عماء! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على
أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه.

نهض النبي ليغادر قلعة عتيمة بددت عنه مشاعر اليتيم يوم كان صغيراً ومنحته السلام في زمن الخوف.

هتف الشيخ بابن أخيه:

- ادنْ مني.

وطبع أبو طالب قبلة دافئة على جبين أزهر أضاءته السماء وقال:

- اذهب يا بن أخي وقل ما تشاء.. والله لأسلمك لشيء أبداً..

ما تزال راية المقاومة تخفق فوق القلعة، وما يزال شيخ البطحاء قوياً مهاباً لن يزلزله عن موقفه أحد.

في رحاب البيت العتيق

الكعبة تنشر ظلالها الوارفة في المكان وقد بدت ذرى التلال، تتوقد حمرة في شمس الصباح، كان رسول الله جالساً وحده غارقاً في تأملاته، يفكر، قد صنع من الصمت محراباً له يقيه شرور العالم.

وكانت ثلثة من زعامات قريش جالسين؛ يتصفحون وجوه الآلهة، التي بدت ذلك الصباح كائنات خرافية تحرق ببلادة.

قال عتبة بن ربيعة وقد رأى محمداً وحده:

- يا معشر قريش! ألا أقوم لمحمد وأعرض عليه أموراً لعله يقبل

بعضها ويكف عنا.

هزّ الجالسون رؤوسهم بحماس:

- نعم يا أبا الوليد.

نهض عتبة وتقدم نحو رسول السماء، جلس عنده بعد أن حيّاه
تحية الصباح وأقبل عليه يحدثه بودّ:

- يا بن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الامر مالاً جمعنا
لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك
علينا حتى لانقطع امراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا.
غادر النبي محراب الصمت وقال:

- أفرغت يا أبا الوليد؟

- نعم يا بن أخي.

- اسمع مني:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ وَقُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٠﴾^(١).

ما بال عتبة تغشى عينيه طيوف تعبر فيها الغيوم. ما باله يبدو
سكران لكانه يطير في عوالم بعيدة؟ هل لهذه الكلمات التي تنساب
كنهر هادئ كل هذا السحر؟!

الكلمات تتدفق كنبح يتفجر بالحياة:

- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾

دوّت الصواعق في أذني عتبة، تجسّدت له مشاهد من قبائل غابرة،
عصفت بها الريح من كل مكان.

- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢)

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ
الْعَذَابِ الْهُونِ﴾^(٣).

اشتعلت الصواعق، ودوّت الرعود.. وأعقب ذلك يوم تحشر فيه
النفوس الأدمية لترى جزاء أعمالها..

١- فصلت: ١-٥

٢- فصلت: ١٦

٣- فصلت: ١٧

ما يزال عتبة مبهوراً مأخوذاً بروعة البيان، بانسياب الكلمات، بدويّ المشاهد، انبعث في أعماقه نداء .. إنها كلمات السماء، كلمات لا يمكن أن تكون من صنع بشر، إنها رائعة أخادة، فيها سحر وروعة، فيها حلاوة وطلاوة، رسول الله يرسم المشاهد الخلافة:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) (١).

انبثقت جنة من نخيل وأعناب، وارفعة الظلال، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ..

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧) (٢).

وهو النبي ساجداً لله الذي خلق الشمس والقمر والكواكب والنجوم ونهض أبو الوليد مسحوراً بالكلمات العجيبة، مأخوذاً بروعة البيان.

تمتم وهو يقص على أصحابه!

- لقد سمعت منه قولاً .. والله ما سمعت مثله قط لم يكن شعراً ولكن

١- فصلت: ٣٠

٢- فصلت: ٣٧

فيه حلاوة الشعر، ولم يكن سحراً، ولكن فيه أثر السحر.
سكت قليلاً وأردف:

- اطيعوني يا معشر قريش .. خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ..
والله ليكونن لقوله نبأ عظيم.

في الجانب الآخر من البحر

استنفدت قريش أساليبها في قهر محمد ﷺ، فالكلمات القادمة من وراء الأفلاك تطوف منازل مكة، وتعبّر أبنيتها، توقظ النائمين، تدلّهم على الفجر القادم من وراء آلاف الليالي المترعة بالظلام الحالّك الثقيل .. كلمات لها تألق الضوء، وشذى البنفسج، ونسمات الربيع .. أيها النائمون انهضوا .. أيها المقهورون هلموا هلمّوا .. إلى عالم الأمل والحرية.

بدت الآلهة حاقدة، ربما كان هبل أكثرهم حقداً، فهو الذي يحرس قوافل قريش، ويملأ جيوب تجارها ذهباً وفضة.

صعد زعماء مكة حربهم ضد المسلمين، السياط تنهال على الأجساد الآدمية، والرمضاء تنضج الجلود، وما زال تجار قريش هم أصحاب الأمر والنهي في هذه القرية الظالم أهلها.

اجتمع المسلمون في دار الأرقم، الحزن والعذاب يطل من العيون
وأهات المعذبين تملأ الفضاء.

قال رسول الله وقلبه يذوب حزناً:

- لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد..
الحبشة أرض صدق.. اخرجوا إليها حتى يجعل الله لكم فرجاً مما
أنتم فيه.

انفتحت كوة من ضياء ونافذة أمل..

ومع الخيوط الأولى من فجر أحد أيام رجب، كانت قافلة صغيرة تتسلل
بحذر، تودّع مكة أم القرى وما حولها صوب البحر الأحمر.

وشهدت تلك المسافات بين مكة وشواطئ البحر قوافل عجيبة..
لا تحمل معها من متاع الدنيا شيئاً إنما زادها قلوب مؤمنة وآمال وردية
في حياة آمنة مطمئنة.

وكانت السفن في ميناء جدّه تحمل المهاجرين إلى أرض طيبة
يحكمها نجاشي عادل لا يظلم في حضرته أحد.

سنوات الرماذ

أعلنت قريش حرباً ضروساً.. حرباً لا هوادة فيها. فيها أسلحة لا تقبل

فتكاً عن السيوف والنصال والرماح .. الجوع والحصار.

كان أبو جهل متحمساً لفكرة المقاطعة. إنها سلاح قريش الذي لا يقهر. لن يستطيع أبو طالب هذه المرة الصمود. لن تجديه المقاومة.

سوف يسلم محمد نفسه ويستسلم، وعندها ستغفو الآلهة قريرة العين، وينام تجار مكة ناعمي البال.

وشهدت الكعبة مؤتمراً خطيراً تداولت فيه الرؤوس بنود الحصار الشامل اقتصادياً واجتماعياً.

فلا علاقات مع بني هاشم، لا زواج ولا مصاهرة، لا بيع ولا شراء ولا كل شكل من أشكال العلاقات الإنسانية، والتمن من وراء ذلك كله تسليم محمد أو تكميم فمه.

قاد شيخ البطحاء قبيلته إلى الخيار المرّ .. إلى واد غير ذي زرع .. إلى شعب بين الجبال.

وشوهد أبو طالب ذلك اليوم وهو يتفقد الوادي مع أخيه الحمزة لسدّ ثغرات في المكان، فقد يتسلل منها الغادرون لاغتيال محمد ﷺ.

لقد أضحى محمد ﷺ رمز التحدي .. القلب النابض .. الذي يخفق بالحياة والأمل. وتمرّ الأيام والشهور.

كان الجوع والحرمان يفعل فعله في الأجساد الآدمية.

كانت تجربة مريرة .. علّمت تلك القبيلة الصغيرة الصلابة والثبات. علّمتهم أشياء كثيرة. تعجز عن استيعابها الشعوب في ظلال الترف وحياة الدعة والخمول.

وتمرّ الأيام والشهور، والوادي مفعم بروح الإيمان والصلابة والثبات حتى إذا اكتملت أعوام ثلاثة، بعث الله الأرضة، تلتهم صحيفة الحصار، وتنسف بنودها الظالمة بنداً بنداً؛ فلم تترك أثراً إلا كلمة واحدة تنطوي في حناياها أسرار الوجود، وتفصيل الكون: باسمك اللهم، تلك الكلمة التي أورثها آدم الأجيال جيلاً بعد جيل.

وجاء رسول الله يحمل إلى عمه البشري:

- يا عم! إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ..
- وانطلق أبو طالب يتحدى قريش، فهتف بإيمان أثبت من الجبال:
- يا معشر قريش، إن ابن أخي قد أخبرني أن أرضة قد أكلت صحيفتكم فمحت فيها الظلم وكلمات الغدر.
- حتى إذا دخل الرهط من قريش جوف الكعبة، اتسعت عيونهم دهشة؛ لقد قهرتهم حشرة صغيرة .. مرّغت كبرياءهم في الوحل.

فقد الأعبة غربة

مرّت سنوات عشر، سنوات مثل الجمر، وفي ذلك العام خرج المحاصرون من الوادي، بعد إلغاء صحيفة المقاطعة، خرج رسول الله والذين آمنوا، خرج أبو طالب، وقد هدّته السنون والأيام؛ وعاد الصغار يلعبون في شوارع مكة وأزقتها وخرجت خديجة وهي تنظر إلى زوجها الصبور المقهور نظرات فيها حب ووداع ورحيل وشيك.

وشعر أبو طالب هو والآخر أنه يقترب من النهاية .. نهاية كل الحيات؛ فأراد أن يطمئن على مصير محمد ذكرى الحبيب الراحل «عبدالله»، فدعا زعماء قريش وساداتها، حتى إذا أحدقوا به من كل صوب وهو في فراش الموت، قال:

- لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد واتبعتم أمره، فأطيعوه تناولوا السعادة في دنياكم وأخراكم.

كانت الأذان صماء صماء لا تفقه شيئاً من كلمات رجل على وشك الرحيل.

وتمرّ الايام ثقيلة قلقة، كان أبو طالب فيها يودع دنياه الفانية، فجمع أفراد قبيلته حوله وأوصاهم بالدفاع عن محمد ورسالته حتى النهاية. وأغمض أبو طالب عينيه، ودّع العالم المشحون بالحوادث ليرحل إلى عوالم بعيدة تزخر بالسعادة والسلام.

وشعر رسول الله بصيرير العاصفة، لقد انهار السدّ العظيم؛ السدّ الذي حماه سنين طويلة، وها هي السيول تنطلق من سلاسلها لتجتاح الحقل الاخضر.

نظر النبي ﷺ إلى عمّه مغمض العينين؛ اشتعلت في أعماقه الذكريات فتمتم بحزن!

- رحمك الله يا عم ربيتني صغيراً وكفلتني يتيماً ونصرتني كبيراً. تذكر يوم كان صبياً في الثامنة، وكان أبو طالب قد استوى على ناقته يريد الشام في تجارة، وتذكر كلماته وهو يبكي:
- إلى من تكلني ولا أب لي ولا أم ..
- ورأى عمه يبكي .. يبكي بمرارة وهو يقول:
- والله لا أكلك إلى غيري.
- واعتنقه ليبكيا معاً. ثم أردفه على ناقته التي راحت تقطع الصحاري والبادي.

تذكر أيام المحنة والحصار .. وها هو الآن راقد في فراشه يتحدث بلغة الصمت .. لغة لا يفهمها إلا الأنبياء.

وبكى رسول الله .. بكى أيام الماضي والحاضر والمستقبل ..

الحبيب الآخر

وتمرّ الأيام عصبية، ويسدد القدر سهماً آخر إلى قلبٍ ذاق مرارة الصبر حتى غدا كالشهد، والصبر سلاح الأنبياء.

ودّعت خديجة زوجها.. رحلت بعيداً بعد أن خلّفت لديه فتاة لم تر الأرض لها نظيراً.. فاطمة، وكأنها حوراء قادمة من السماء.

كبرت فاطمه في زمن الحرمان.. في زمن الحصار.. في زمن اليتيم، لهذا نشأت نحيلة القوام كغصن كسير، رسم القهر في عينيها الواسعتين لوحة حزينة.. مفعمة بالصمت.. تفكر.. تتأمل وتنطوي على نفسها في استغراق يشبه صلاة الأنبياء.

نشأت فاطمة في زمن الجذب.. فغدا عودها صلباً ضارباً في الأرض جذوراً بعيدة الغور. بدت أكبر من سنّها. لتنهض بالحمل.. لتملأ فراغاً هائلاً أحدثه رحيل أمّها. نهضت سيّدة صغيرة.. أمّاً رؤوماً لوالدها الذي أضحى وحيداً.

العروج

اشتدت عذابات الأرض، تكاثفت الظلمات، وبدت النجوم البعيدة قلوباً تبض على وهن، ورسول السماء وحيد في الأرض.. الأرض التي أريد لها أن تتطهر من أدران الشيطان، فآن لجبريل أن يهبط إلى الأرض،

آن للروح المكين أن يغمر بشفافية مائة الطبيعة .. يمسها ويبث فيها روح القدس، كما أن للإنسان أن يعرج .. أن يلج الملكوت؛ من أجل هذا كان محمد ﷺ على ميعاد مع جبريل .. ومع البراق.

وانطلق محمد ﷺ في رحلة مثيرة .. رحلة عبر الفضاء والزمن.

عرج رسول الله إلى السماوات يتخطى مدارات الكواكب وآلاف النجوم .. يخترق جدران الزمن ليرى الآيات ..

بدت الأرض صغيرة .. ضئيلة .. زيتونة .. مشحونة بالحوادث ..

طاف رسول الله عوالم الملكوت في رحلة مثيرة خارج حدود الزمكان .. حتى إذا عاد إلى كوكب الحوادث .. الأرض المثقلة بالخطايا عاد أقوى من كل جبابرة الأرض .. عاد قوياً كالزوبعة .. طاهراً كقطرات الندى .. ثابتاً كالجبال .. عاد إنساناً سماوياً .. أو كائناً أرضياً مسته السماء فإذا هو ينبوع نور.

إلى الطائف

وخرج رسول الله مع زيد بن حارثة إلى الطائف .. إلى قرية غير القرية الظالم أهلها ..

يا لعذاب الأنبياء .. عشرة أيام يدور في أحيائها يدعو الناس إلى

النور القادم من السماوات .. ولكن ..

قهقهه المترفون!

- أما وجد الله احداً يرسله غيرك؟

- انظروا إلى هذا النبي!

قال رسول الله:

- إذن اكنتموا عليّ لا تسمع بذلك قريش.

الخفافيش تكره النور .. تحقد على الشمس .. تشعر بالموت إذا
أشرق فجر جديد من أجل هذا حقد سادة الطائف .. أرادوا أن يطفئوا
الشموع .. النجوم، الشمس والقمر .. أغروا سفهاءهم بهذا الرجل
المكي، فإذا أُرْزِقة الطائف تمطر حجارة رعناء. ومضى رسول الله يتفادى
الحجارة والسخرية وكانت تصيبه في قدميه ورأسه .. حتى وصل جنة
من كروم وأعناب.

الظلال الوارفة .. والسكينة .. والصمت دفعت بالرسول المكي أن
يتفياً ظلال كرمة في تلك الجنة الأرضية.

كان البستان لرجلين من مكة هما عتبة وشيبة، وكان معهما غلام
نصراني اسمه عدّاس.

كانا ينظران إليه .. يتأملان وربما يتساءلان: لم اختار محمد طريق العذاب كل هذه السنين؟!

اتجه رسول السماء إلى السماء وقال بخشوع:

- اللهم إني أشكو إليك ضعفي .. وقلة حيلتي وهواني على الناس ..
يا أرحم الراحمين ..

أنت ربّ المستضعفين .. وأنت ربّي.

إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؛ أم إلى عدو ملكته أمري؟

إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي .. ولكن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك ..

قال أحدهما:

- احمل اليه قطفاً من هذا العنب

حمل النصراني طبقاً من العنب ومضى إلى الرجل الشريد.

مدّ النبي يده وقال:

- بسم الله

تسأل عدّاس بشيء من الدهشة:

- إن هذا كلام ما يقوله أهل هذا البلدة.
قال رسول الله:
 - من أي بلد انت؟
أجاب عداس:
 - أنا نصراني من أهل «نينوى»^(١).
قال النبي ﷺ:
 - قرية الرجل الصالح يونس بن متي.
تصاعدت دهشة عداس:
 - وما يدريك ما يونس بن متي؟!
 - ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي
- لو قدر للمرء ان يحضر ذلك اللقاء في ظلال تلك الكرمة لسمع
دويّ الانهيارات في أعماق «عدّاس». إنه أمام رجل يتخطى أعمدة
القرون ليلتحم بقافلة الأنبياء .. قافلة تسير على اسم الله .. من آدم إلى
نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.

١- مدينة قديمة على نهر دجلة كانت عاصمة للآشوريين نهضت على أثارها مدينة
الموصل العراقية.

وعاد الشريد إلى مكة ليبلغ رسالات الله إلى قرية هي أم القرى.

يثرب

لم تكن مدينة يثرب التي تقع شمال مكة وتفصلها مسافة ٤٥٠ كم سوى مجموعة من المنازل والمزارع والحصون تنهض في بقعة خصبة نسبياً، تبلغ مساحتها ٣٢ كم^٢ تقريباً.. تحيط بها التلال و«الحزات»^(١). يقع شمالها جبل صغير هو جبل أحد، وجبل «عير» في الجنوب الغربي منها، كما ينبسط بقيع الغرقد في شرقها، وترقد جنوبها قرية صغيرة هي قرية «قباء» لا تبعد عنها سوى ثلاثة كيلومترات.

كان العمالة أول من سكنها فبنوا فيها الحصون وزرعوا النخيل، ثم نزح إليها فيما بعد «بنوقيلة» وهم تجمع قبلي يضم قبيلتي الأوس والخزرج. ويعود مصدر هذا النزوح إلى اليمن، وبالتحديد إلى القبائل العربية في الجنوب.

وكانت قبيلتا «قريظة» و«بني النضير» قد سبقتا هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب حيث سكنتا المنطقة الخصبة من تلك الأرض، وهناك قبيلة يهودية ثالثة أقل شأنًا هي قبيلة بني قينقاع.

وقد كان لليهود في الجزيرة العربية نفوذ قوي يستند إلى كياناتهم

١- الحزة: أرض حصباء لا تصلح للزراعة.

السياسي في الدولة الحميرية الثانية في اليمن، وما لبث هذا النفوذ أن تضاعف بعد الغزو الحبشي لليمن والقضاء على الدولة الحميرية، فيما ظل نفوذهم الاقتصادي على قوته.

ظَلَّتْ يثرب تعيش بسلام وصفاء مدّة طويلة نسبياً إلى أن دبّ الخلاف بين قبيلتي الأوس والخزرج. وكان اليهود يذكون روح التنافس بين الأخوة، إلى أن تحولت العلاقة إلى عدااء سافر وتناحر، ثم اشتعال الحروب و«الأيام»^(١).

وأقصى ما استفاده عرب يثرب من اليهود، هو تقبلهم لفكرة النبوة ورسالات السماء، إضافة إلى ذلك فقد كان اليهود أنفسهم يبشرون وينذرون جيرانهم بظهور نبي جديد قد أطلّ زمانه؛ وهذا ما ساعد على انهيار الوثنية بسرعة في هذه المدينة.

وفي هذه الظروف بدأ أول اتصال لعرب يثرب بسيدنا محمد ﷺ.

وادي العقبة

كان رسول الله ﷺ ينشط ببث دعوته في الحج حيث القبائل العربية تتدفق صوب مكة.

في وادي العقبة كان أول لقاء بين رسول الله وبين أفراد من قبيلة

١- كان العرب في الجاهلية يطلقون على معاركهم اسم الأيام.

الخرزج .. كانوا ستة أشخاص .. تحمسوا جميعاً للدين الجديد، ورأوا في سيدنا محمد ﷺ الشخصية الوحيدة التي يمكن ان تنقذ مدينتهم من أخطار النزاع القبلي، ومشاعر الثأر المتأججة.

وانطلق اليثريون إلى مدينتهم يبشرون برسالة السماء وأضحى اسم محمد ﷺ على الشفاه.

وفي موسم الحج التالي عاد خمسة منهم، ومعهم سبعة آخرون فيهم ثلاثة من قبيلة الأوس.

وفي وادي العقبة أيضاً التقى النبي ﷺ الوفد اليثري وعرض على أفراده دعوة السماء، وقد أسفر اللقاء عن إسلام أفراد الوفد، ثم بيعتهم على مبادئ الدين الجديد، وقد عرفت هذه البيعة ببيعة النساء^(١).

ورأى النبي ﷺ أن يرسل مع الوفد رجلاً من أصحابه هو مصعب بن عمير الذي سماه مصعب الخير.

ولقد كان لشخصية هذا الصحابي وحماسه وأدبه وأسلوبه الهادئ الرصين، الأثر الكبير في انتشار الإسلام في منازل يثرب فلم يبق منزل فيها إلا واعتنق أحد أفراده الدين الجديد.

١- سميت بذلك لان بنودها خلت من مسائل الدفاع والقتال واقتصرت على وصايا اخلاقية، أو لوجود عفراء بنت عبيد التي تعدّ اول امرأة بايعت رسول الله ﷺ في تاريخ الاسلام.

حتى إذا حل موسم الحج إذا عشرات الرجال والنساء ينطلقون إلى مكة للقاء الرسول.

رتّب مصعب موعد اللقاء في ظروف بالغة السريّة، فقد كانت قريش تراقب بدقة تحركات النبي ﷺ وتنظر بعين القلق إلى لقاءاته مع القبائل العربية الوافدة للحج.

غمر الليل مكة وضواحيها، وخيم صمت مهيب، وكان على رجال يثرب الذين ادّوا مناسك الحج أن يتظاهروا بالنوم لكي لا يشعر أحد بما عزموا عليه.

انتصف الليل ونام الجميع، وانسل المسلمون فرادى وجماعات فيما ظل مشركو يثرب يغطون في نوم عميق.

وفي وادي العقبة اجتمع ستة وسبعون شخصاً منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وثلاث نساء.

وبعد انتظار قصير جاء النبي ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب.

ولقد وجد رسول الله في أهل يثرب حماساً للإسلام فريداً، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر مراسم البيعة الخالدة لآخر الأنبياء في التاريخ. وفي جوّ مثير تلا رسول الله آيات من القرآن الكريم، ثم قال:

- أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.
- وهذا أقصى ما يمكن التعبير عنه في الدفاع حتى الموت.
- وتقدم رجال يثرب ونسأوها للبيعة ليكون هذا اللقاء في تلك الليلة منعطفاً هاماً في تاريخ الإسلام.
- عاد أهل يثرب إلى مضاجعهم، لم يشعر بهم أحد، وانطوت تلك الليلة المثيرة بسلام.

الهجرة

رافقت الهجرة الحياة البشرية منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، وكانت وما تزال وستبقى ظاهرة اجتماعية لها ما يبررها ابداً، وهي إذا بدت مجرد احتجاج هادئ ضد الظلم والقهر، فإنها تعدّ حدثاً كبيراً جداً، وبداية لفصل جديد في حياة الانسان أو الشعب المهاجر.

لقد تصاعد الظلم في مكة حتى لم يعد محتملاً، وأضحت حياة تلك المجموعة البشرية التي آمنت برسالة السماء أمراً لا يطاق، وكان رسول الله يسعى جاهداً في صنع مستقبل أفضل لاتباعه فكانت الهجرة إلى الحبشة حلاً مؤقتاً إلى أن تم لقاء العقبة.

ففي غمرة الظلام والوادي القريب من مكة انفتحت كوة للأمل والخلاص، عاد النبي المطارد إلى قريته يبشر أتباعه المقهورين قائلاً:

- إن الله جعل لكم إخواناً وداراً تأنسون بها.

وهكذا بدأ فصل جديد في حياة الإسلام، وشهدت تلك الليالي المريرة المفعمّة بالخوف والقلق والأمل رجالاً يفرّون من وطنهم .. من الأرض التي أنجبتهم وقضوا فيها أيام صباهم. ووقفت قريش بكل جبروتها عاجزة أمام هذه الظاهرة الخطيرة، وبدأ المجتمع المكي يهتز بشدّة، وكانت الآلهة والمعادلات والمصالح تتأرجح وتهتزّ بعنف.

المؤامرة

ورأى أبو جهل وأبو سفيان وأمّية وكل الرؤوس القرشية التي ساءها ظهور الإسلام، أن أفضل الحلول في هذه الظروف هو تصفية محمد والتخلص منه.

وإذا كان للتكتلات القبلية، وثقل بني هاشم الاجتماعي في حماية رسول الله طوال هذه السنين من القتل؛ فإن اشراك القبائل في اغتياله سيجعل من بني هاشم عاجزين عن مواجهتها ثم التخلي عن فكرة الثأر.

وهكذا سولت لأبي جهل نفسه وولدت المؤامرة:

وكانت المؤامرة من الخطورة بمكان أن هبط جبريل من السماء:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ

وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿١﴾

غمر الليل مكة .. ملأ أزقتها بظلمة ثقيلة، وبدت النجوم وهي تومض من بعيد قلوباً خائفة.

كان أبو جهل يعبّ خمزته منتشياً بفكرته .. ستبقى مكة تتحدث في أُنديتها وتشيد بفطنته.

الفداء

وفي تلك اللحظات المشيرة، والمؤامرة على وشك التنفيذ، دخل فتى الإسلام علي أبواب التاريخ، في واحدة من أكثر قصص الفداء إثارة ودرامية.

أن يصمد الرجال في المعارك يقاتلون حتى النفس الأخير فتلك شجاعة فريدة تدعو إلى الإعجاب .. ولكن أن يقدم المرء نفسه للموت تتخطفه سيوف وخناجر فهذا ما لا يمكن أن تستوعبه أبجدية ما مهما بلغت من دقة التعبير وأداء المعنى.

همس علي وهو يصغي إلى حديث رجل عاش معه أكثر من عشرين سنة:

- أو تسلم يا رسول الله إن فديتك بنفسي؟
 - نعم بذلك وعدني ربي.
- كان علي حزيناً فمكة تلك القرية الظالم أهلها تتأمر على قتل إنسان بعثته السماء لخلاص الأرض، ولكن حزنه سرعان ما تحول إلى فرحة كبرى.

تقدم الفتى بخطى هادئة إلى فراش النبي ﷺ والتحف ببردته ينتظر السيوف التي ستمزقه.. وستدفق دماؤه نقية طاهرة ترسم فوق الثرى قصة رائعة من قصص الفداء.. ورقد علي في فراش النبي، فيما انطلق الشريد صوب الجنوب لا يلوي على شيء.

الطريق إلى يثرب

كانت خطة النبي ﷺ أن يتوجه جنوباً، نحو جبل ثور؛ ليختبئ فيه عدة أيام ريثما تعد وسائل النقل وتأس قريش من إلقاء القبض عليه، كما أن مبيت علي في فراشه قد أسهم كثيراً في تأخير اكتشاف المتآمرين لنبا هجرته.

وفي ظروف بالغة السرية اشترى علي عليه السلام بعيرين للنبي ﷺ وصاحبه أبي بكر؛ كما تم الاتفاق مع دليل الصحراء عبد الله بن أريقط. وبالرغم من بقاء الدليل على وثنيته فقد كان رجلاً أميناً وثق به النبي.

استيقظت قريش على دويّ المفاجأة، وتصرف زعمائها بهستيرية عنيفة، فقد انطلقت فرسان الدوريات يبحثون في الأودية، كما وضعت جوائز مغرية لمن يدلّ على الشريد أو يدلي بمعلومات تساعد في القبض عليه. وبالرغم من إدراكهم إلى أن لدى بعض الأفراد معلومات هامة ولكنهم فشلوا في انتزاعها.

لقد كانت قريش واثقة تماماً من لقاء القبض على محمد، فقد اهتدى خبراء الأثر إلى منطقة تحوم حولها الشكوك بل إنهم وصلوا إلى جبل ثور حيث اختبأ ﷺ وصاحبه في أحد أغواره.

وهنا تدخلت السماء لتحمي آخر الرسائل في التاريخ.

تسلق أحدهم إلى الغار ليرى ما فيه ومن فيه، ثم سرعان ما عاد إلى أصحابه.

- ماذا هناك؟
- لا شيء.
- والغار؟
- رأيت في فم الغار نسيج العنكبوت وأحسب أنها نسجته قبل ميلاد محمد.. ورأيت عشاً فيه حمامتان وأغصاناً متشابكة لا يمكن للمرء أن يدخل الغار إلا بإزالتها.

- إذن لم يدخله أحد.
- نعم لم يصله إنسان.
- وكان رسول الله يصغي إلى الحوار فهتف في أعماق قلبه:
- الحمد لله .. وغمرت السكينة قلبه.

الرحلة

وفي الموعد المقرر جاء الدليل يقود بعيرين وذلك بعد ثلاثة أيام
قضاها رسول الله في الغار.

تقع يثرب في الشمال من مكة ومع هذا فقد اتجه رسول الله جنوباً
إلى جبل ثور امعاناً في تغطية رحلته بالسرية الكاملة.

وكان على الدليل أن يتجه نحو ساحل البحر الأحمر وسلوك طريق
بعيد عن طريق القوافل.

كانت رحلة شاقّة .. وتمرّ سبعة أيام والنبي يقطع سهول تهامة في
صيف ملتهب، وفي طريق بالغة الصعوبة، حتى إذا بدت مضارب
بني سهم، تنفس النبي الصعداء، فقد مرّ الخطر ولن تستطيع قريش
أن تفعل شيئاً.

في الثاني عشر من شهر ربيع الأول وصل قرية قبا، في ضواحي يثرب.

وفي قبا أمضى النبي ﷺ أربعة أيام مترقباً وصول ابن عمه علي بن أبي طالب.

وعندما حل يوم الجمعة يمم الرسول ﷺ وجهه شطر المدينة، وكان آلاف السكان ينتظرون طلعه البهية.

في تلك اللحظات المهيبة عندما تغير المدن اسماءها^(١)، وفي يوم ١٦ ربيع الأول الموافق ١١٢٠ ايلول سنة ٦٢٢ م وصل النبي ﷺ يثرب في لحظة تاريخية خالدة، فلقد هب أهل المدينة عن بكرة أبيهم لاستقبال آخر الأنبياء في التاريخ.

وخرجت فتيات المدينة ينشدن أناشيد الفرح، وهن يلمحن من بعيد ركب المهاجر يجتاز ثنيات الوداع:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

جئت نورّت المدينة مرحباً يا خير داع

وفي تلك اللحظات المفعمة بمشاعر الأمل والفرحة واللقاء بدأ التاريخ الهجري، وتبلورت نواة المجتمع الإسلامي.

١- اشتهرت يثرب فيما بعد باسم المدينة المنورة.

فلم تمض أيام قلائل حتى كتب النبي ﷺ أول وثيقة تعلن ولادة الأمة الإسلامية ككيان مستقل له هوية:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من محمد النبي نبي المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس»^(١).

ولقد تضمن الإعلان بنوداً غاية في الدقة والنظام كشفت شخصية الرسول قائداً أو زعيماً لدولة كبيرة فيما بعد.

وعندما تم الانتهاء من بناء المسجد في قلب المدينة أصغى المجتمع الجديد لصوت ينساب كنهر هادئ.. صوت عذب يدعو المسلمين إلى الصلاة والتوجه نحو الله الخالق الباري الكريم.

صوت يعلن أن لا أكبر من الله شيء، وأنه وحده لا إله سواه ولا معبود غيره. وأن الصلاة هي لحظة الاتصال للشكر على ما أنعم، وأن الحمد له والثناء عليه وحده.

١- سيرة ابن هشام.

الهاجس اليهودي

كان اليهود من سكان المدينة وخارجها ينظرون بقلق إلى ما يجري في يثرب، وهم يرون محمداً ذلك الرجل الشريد الذي وصل المدينة على قدر زعيماً كبيراً وقائداً فذاً يقود أتباعه نحو مستقبل مشرق.

بدأ اليهود مكرهم لتمزيق الصفاء الروحي والتشويش على عقائد المجتمع الجديد، فشنوا حرباً فكرية لا هوادة فيها.

ان الطبيعة اليهودية طبيعة معقدة لها قابلية عجيبة على التلون بمختلف الألوان والظهور في عدّة أشكال، فيما يظل الجوهر فاسداً لا أمل فيه؛ ففي تلك الظروف تظاهر بعض أحبارهم باعتناق الإسلام من أجل التغلغل في المجتمع الإسلامي وتخريبه من الداخل، كما وظفوا المنافقين وهم تلك الشريحة من سكان يثرب الذين وجدوا أنفسهم يعتنقون الإسلام لأسباب بعيدة كل البعد عن روح الإيمان وطمأنينة القلب.

وفي تلك الفترة طرح اليهود مباشرة أو من وراء حجاب أسئلة عن طبيعة الخالق، وعن الروح.

وكان وحي السماء يؤسس العقيدة الجديدة السامية ويطهرها عما لحق بالرسالات الغابرة من زيف وتحريف.

وراح المجتمع الوليد يردد:

- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾

وكان من المفروض أن يرسم الموقف اليهودي الرافض للدين الجديد علامة استفهام حول الإسلام، نظراً للثقل الفكري والديني الذي يتمتعون به، غير أن التاريخ الحافل بالوثائق والذي يدين اليهود ويشهد بفساد عقائدهم وانحرافهم وقتلهم عشرات الأنبياء والأسلوب القرآني في مواجهتهم قد أدى إلى تهميشهم، فما لبث المجتمع الإسلامي أن راح ينظر إليهم بعين الشك والريبة.

ولقد بلغ التعنت اليهودي ذروته عندما سادت روح من الخوف بسطاء اليهود من الذين كانوا يودّون اعتناق الإسلام من كل قلوبهم ولكنهم كانوا يخشون خطر الاغتيال.

وفي تلك الظروف الصعبة بين مكر اليهود وخبث المنافقين، أثبت المجتمع الإسلامي صلابته وأعلن هويته واضحة جلية، وهكذا مرّ عام.

الطريق الدامي

كان من الطبيعي أن يفكر زعماء قريش ومن خلال حسّهم التجاري

بشن حرب اقتصادية على يثرب واستخدام أسلوب التجويع لتركيع خصمهم.

ومن هنا حاصرت مكة طريق القوافل المتجهة نحو الشمال وصار من المتعذر وصول الأغذية إلى المدينة المنورة، وبالرغم من خصوبة الأراضي المحيطة بالمدينة وامتداد الحقول والمزارع فيها إلى مساحات شاسعة، إلا أن الحصار قد فعل فعله فارتفعت أسعار المواد الغذائية، وقد لعب اليهود وهم خبراء في التفكير الاقتصادي دوراً في التلاعب بالأسعار من خلال الاحتكار؛ غير أن المجتمع الإسلامي واجه ذلك بروح من الصبر والتحمل، وكانت استجاباتهم لهذا التحدي إيجابية، فأصبحت لهم سوقهم الإسلامية الخاصة بهم.

ولم يكن للنبي ﷺ أن يقف مكتوف الأيدي إزاء ما يجري حوله من تأمر وأساليب غاية في الدناءة والخبث، فكان ينتظر امر السماء.

آية السيف

وهبط جبريل يحمل آية السيف:

- ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ

يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾

وبدأت مصانع السلاح بالعمل، وتآلق الحصان العربي مادام منطلقاً للدفاع ونشر الإسلام و «الخيـل معقود تحت نواصيها الخير»^(٢).

لم يكن المشركون في مكة الذين اعتادوا أساليب ظلم غيرهم والتنكيل بهم أن يفهموا لغةً غير لغة القوة، كانوا عدوانيين حتى النخاع لا يرون شيئاً سوي أنفسهم ومصالحهم، ولقد بدأوا عدوانهم على الإسلام منذ الأيام الأولى وكانوا يهدفون إلى سحق الدين الجديد بأي ثمن.

لقد عانى المسلمون الكثير من التعذيب والقهر والتشريد، حتى إذا فتح الله عليهم باب الهجرة إلى وطن آمن، انتهجت قريش أسلوب الحصار والحرب الاقتصادية واستخدمت سلاح الغداء لتجويع الخصم وتركيعه.

لم يكن رسول الله بغافل عما يمكرون ولكنه كان يواجه كل ذلك بالصبر والتحمل حتى إذا بلغ السيل الزبى، كان له موقف آخر فوجئت به قريش والجزيرة بأسرها، فلقد كشفت الأيام عبقرية حربية كامنة في

١- الحج: ٣٩-٤٠

٢- كلمة مأثورة عن النبي ﷺ

أعماق رجل تجاوز الخمسين عاماً بسنوات خمس.

بلغت الفترة التي أعقبت هجرة الرسول ﷺ وحتى اندلاع معركة بدر الكبرى تسعة عشر شهراً تقريباً، لم يندلع خلالها أي صراع مسلح بين مكة والمدينة وكانت الأعمال العسكرية لا تعدو خلال تلك الفترة دوريات للاستطلاع، واستكشاف الطرق المحيطة وتعزف المسالك التي تؤدي إلى مكة، ومحاولة كسب القبائل في تلك المناطق الحساسة من خلال دعوتها إلى الإسلام، أو التحالف معها على الأقل. وكان خروج الدوريات المسلحة بين الفترة والآخرى إشعاراً للجميع واستعراضاً لقوة المسلمين العسكرية.

ولقد حول الرسول ﷺ بعقريته المدينة المنورة إلى قاعدة قوية يحسب لها ألف حساب.

وفي المقابل أثبت زعماء مكة المشركون غباءهم بانتهاجهم أسلوب الحصار الاقتصادي الذي فشل مرة في داخل مكة يوم كان المسلمون قلة قليلة وذلك أيام المقاطعة المريّة في شعب أبي طالب.

وها هم ينتهجون ذات الأسلوب مع المسلمين في مدينة يثرب التي تعتمد في اقتصادها على الزراعة.

وهكذا انقلب السحر على الساحر، وحول النبي ﷺ سلاح الحصار

نحو نحورهم، فاستيقظوا من أحلامهم المريضة مذعورين.

الطريق إلى آبار بدر

لابد لقوافل التجارة التي تغادر مكة نحو الشام أن تسلك السهول الساحلية التي تمرّ قرب المدينة في عرض يمتد إلى أكثر من مئة كيلو متر تقريباً، وهذا ما يمكّن المسلمين من تهديد هذه الطريق التجارية. لقد بنى المكيّون أمجادهم على التجارة، في رحلات كبرى تتألف في بعض الأحيان من ألف بعير.

ويمكن الإشارة إلى ثماني دوريات استطلاعية تخللت تلك الفترة، لم ينشب خلالها أي صدام مسلح، باستثناء آخرها والتي قادها عبدالله بن جحش في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، وقد أدّى الاصطدام بين الدورية والقافلة في وادي اليمانية بين مكة والمدينة والطائف إلى حادث قتل، تأثر الرسول ﷺ لوقوعه في رجب أحد الأشهر الحرم.

استغلت قريش هذا الحادث أبشع استغلال، وراح تشهّر بالنبي والمسلمين لانتهاكهم حرمة الشهر الحرام.

غير أن السماء كان لها رأي آخر، فقد هبط الوحي بالآية الكريمة:

- «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ
اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» (١).

وكانت هذه الآية بمثابة إعلان عن بدء فصل جديد، أدرك المشركون
فيه عزم المسلمين على معاقبتهم في أول فرصة.

وصلت أنباء عن مغادرة قافلة تجارية ضخمة مدينة غزة باتجاه
مكة.

كانت القافلة تتألف من ألف بغير محمله بالقمح، والعطور
والبضائع الأخرى.

وكان من ميزات هذه الرحلة التجارية أنها تضم رؤوس الأموال
الكبيرة وهي بذلك تهّم زعماء قريش البارزين، كما أن تولّي أبي سفيان
لقيادتها أكسبها حساسية بالغة، فأبو سفيان من أعداء الإسلام الألداء.

قرر النبي ﷺ تأديب قريش من خلال التعرض لهذه القافلة
الضخمة، وعلى هذا الأساس عبّأ قوّات محدودة بلغ تعدادها ثلاثمئة
وثلاثة عشر رجلاً.

بعث النبي ﷺ دورية استطلاع لجمع معلومات عن مسار القافلة

وترصد أخبار قريش في مكة، كما قسم جيشه إلى كتبتين؛ كتيبة تضم المهاجرين ورايتها مع علي بن أبي طالب، وكتيبة الأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ.

سلكت القوات الإسلامية طريق القوافل التجارية حيث يبلغ طوله حوالي (١٦٠) كم ووزع النبي ﷺ وسائط النقل المؤلفة من سبعين بعيراً على جنوده، فتحتم أن يشترك كل ثلاثة مقاتلين على اعتقاب بعير واحد، وكان نصيب الرسول مع علي ابن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي.

وعندما أعرب كل من علي ومرثد عن استعدادهما على السير مشياً قال النبي ﷺ:

- ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عنكما عن الأجر.

وكان منظر الرسول وهو يطوي المسافات مشياً أسوة بغيره قد ملأ قلوب جنوده إجلالاً وتفاخياً وحباً.

الأنباء المثيرة

هطلت الأمطار.. هطلت بغرارة فسالت أودية بقدر.. وقف النبي ﷺ .. راح ينظر إلى السماء والسحب تسح ما تسح من دموعها الثقيل .. رفع يديه إلى عوالم لانهائية وتضرع إلى الله واهب الحياة.

- اللهم نصرك الذي وعدت.

كان الوجوم يسيطر على الوجوه فالأنباء كانت مثيرة.. لقد خرجوا لمواجهة قافلة تجارية.. وها هي الصحراء تحمل إليهم نبأ عن زحف قريش بجيش كبير.

كان أبو سفيان يقود القافلة بحذر وقد شعر بشيء ما عندما وصل المناطق المتاخمة ليشرب، وفي مكان قرب آبار بدر عثر على روث للإبل، وعندما فتنه ورأى فيه نوى تمر صرخ بذعر:

- هذه والله علائف يثرب.

بادر أبو سفيان إلى إرسال صيحة استغاثة إلى مكة فيما غير مسار القافلة باتجاه البحر الأحمر، وهكذا ابتعدت عن آبار بدر ممعنة بالفرار، وهكذا افلتت القافلة.

كان زحف قريش يمثل أول تحدٍّ كبير يواجهه المسلمون، وكان عليهم ان يتخذوا قراراً ما.

أطلع النبي ﷺ أصحابه على مجريات الأحداث وهتف بقواته:

- اشيروا علي أيها الناس.

كان الموقف يزداد حرجاً لحظة بعد أخرى.

نهض عمر وقال:

- يا رسول الله! إنها قريش وعزّها ما ذلت منذ عزّت ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك، فاتهب لذلك اهبتّه وأعدّ لذلك عدّته.

وراح المسلمون ينظر بعضهم إلى بعض، وفي تلك اللحظات نهض المقداد بن عمرو وهتف بحماس:

- يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.. بل نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

وأشرق وجه الرسول ﷺ بابتسامة رضا.

كان المقداد يمثل موقف المهاجرين، فأراد النبي ﷺ أن يعرف موقف الأنصار، فهتف مرّة أخرى:

- أشيروا عليّ أيها الناس.

نهض سعد بن معاذ وقد أدرك رغبة النبي ﷺ:

- كأنك تريدنا يا رسول الله؟

- أجل.

- لقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك

العهد والميثاق، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر^(١) فخضته لخضناه معك ما تخلف عنا رجل واحد.. أنا لُصِّبَر عند الحرب، صُدِّق عند اللقاء. وقد أثارت هذه الكلمات الثائرة الحماس في نفوس المقاتلين ومدّتهم بالعزم والقوة والمواجهة.

وهكذا أصدر الرسول أمره باستئناف المسير:

- سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين.

وغادر النبي ﷺ وادي ذفرات، سالكا المنعطفات قريباً من الكثبان الرملية في منطقة حنان، واستمر يطوي المسافات إلى أن وصل آبار بدر، وقام بنفسه بجولة استطلاع في المناطق المحيطة فصادف شيخاً وأدرك من خلال الحوار معه أن قريش قد تصل بين لحظة وأخرى الكثبان الرملية في أقصى الوادي من آبار بدر.

وفي غمرة تلك الليلة بعث النبي ﷺ أيضاً دورية استطلاع بقيادة علي بن أبي طالب عليه السلام، التي تمكنت من إلقاء القبض على شخصين من سقاة جيش قريش فساقتهما إلى معسكر المسلمين.

سأل النبي ﷺ عن عدد قوات قريش:

١- البحر الاحمر.

- كم القوم؟
- كثير.
- ما عدّتهم؟
- لا ندري.
- كم ينحرون في اليوم؟
- يوماً تسعاً ويوماً عشراً.
- التفت النبي إلى أصحابه وقال:
- القوم ما بين التسعمئة والألف.
- ولقد صدق حدس النبي ﷺ عندما تقدمت قوات قريش، وظهر أنها تتألف من تسعمئة وخمسين مقاتلاً.
- تمركزت قريش في ثنايا التلال القريبة من الوادي، بينما انتخب المسلمون الجانب الشرقي منه.
- وفي فجر يوم ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد بدت المعركة وشيكة، هبط جبريل يحمل دعوة السماء إلى السلام.
- وكان هناك من يصغى إلى هذا النداء، لولا غرور أبي جهل وإصراره على الحرب بأي ثمن.

ولقد تجلّت عبقرية الرسول العسكرية في هذه المعركة من خلال قيامه بعدة خطوات من قبيل جمع المعلومات عن العدو، وتغطية تحركه بالسرية الكاملة، وانتهاجه أسلوباً مبتكراً في التكتيك القتالي يعتمد ترتيب الصفوف وهو أسلوب لم يكن معروفاً من قبل، إضافة إلى عامل آخر يمثل دون شك السلاح الأقوى في المعركة وهو الإيمان العميق والعقيدة.

اشتعلت المعركة في الصباح الباكر واستمرت حتى المساء وخاض المسلمون مقاومة بطولية حسمت فيما بعد إلى جانبهم نصراً ساحقاً لتشهد عيون بدر أول معركة حاسمة في تاريخ الإسلام ولتصبح فيما بعد فاتحة لسلسلة من الانتصارات الباهرة وهكذا عاد النبي ﷺ إلى المدينة تخفق فوق هامته راية «العقاب» فيما ظلت أصداء ما حدث قرب آبار بدر تتردد في الجزيرة العربية.

لقد شهد ذلك العام أيضاً أربعة أحداث أخرى.

- تغير القبلة وتحولها من بيت المقدس إلى الكعبة، وقد استاء اليهود من جرّاء ذلك بشدة.
- تشريع الصوم في شهر رمضان المبارك، كما أصبحت للمجتمع الإسلامي أعياده الخاصة في عيدي الفطر والأضحى.
- اقتران علي بن أبي طالب عليه السلام بفاطمة الزهراء كريمة النبي ﷺ.

- تغيّر مسار القوافل التجارية لقريش وتحولها من طريق الشام إلى طريق العراق إثر معركة بدر.

ولقد تنفس المسلمون الصعداء خاصّة الذين ما يزالون في مكّة إثر مصرع أشدّ أعداء الإسلام قسوة كأبي جهل وأمية بن خلف، كما لقي أبو لهب حتفه كمدّاً بعد سماعه نتائج ما حدث في «بدر».

المسألة اليهودية

لا يحتاج المرء إلى جهد كبير لكي يتعرف على طبيعة اليهود، وموقف القبائل اليهودية إزاء الإسلام، فلقد برز حقدهم الاعمى منذ الأيام الأولى من وصول النبي ﷺ المدينة المنورة.

حاول الرسول ﷺ تجنب الاصطدام بهم ما أمكن، غير أنهم فسروا ذلك نوعاً من الخوف، فراحوا يحيكون المؤامرات ضد الإسلام مستهينين بالمسلمين حتى بعد انتصارهم في معركة بدر.

وكان يهود بني قينقاع أول من فجر الموقف ضد المسلمين إذ صعدوا من استفزازهم وراحوا يسخرون من رسول الله وأصحابه.

وقد لعبت ثرواتهم الطائلة وحصونهم الحربية المنيعة في نفخ روح الغرور في نفوسهم.

وإذا كان لكل اشتعال شرارة فقد وقع حادث في السوق اليهودية

فجّر الموقف بين اليهود والمسلمين.

كان الوقت ضحى وسوق الصاغة يزخر بالباعة والمارة؛ وصادف أن جاءت امرأة مسلمة تريد بيع حليها الذهبية فدخلت أحد دكاكينهم. واستيقظت كوامن الطبيعة اليهودية فتقاطر على الدكان بعض اليهود وراحوا يستفزون المرأة.

وإذا كان اليهود قد ورثوا حبّ الذهب منذ أن صنع السامري عجلاً ذهبياً له خوار، فإنهم أيضاً قد توارثوا صفات أخلاقية غاية في الانحطاط، فالخسة والغدر والدناءة باتت من خصائصهم التي تنهض عليها شخصيتهم المعقدة.

وهكذا سولت لليهودي نفسه، فاستغل انشغال المرأة وثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، عندما أرادت المرأة المسلمة الانصراف ونهضت سقط الرداء، كان اليهود ينتظرون هذه اللحظة فانفجروا ضاحكين.

وصرخت المرأة:

- يا للمسلمين.

وهب مسلم غيور للدفاع عن الشرف، فهوى بسيفه على الصائغ، وأحاط اليهود بالمسلم وقتلوه.. وهكذا اشتعلت الفتنة.

وبالرغم من كل ذلك أراد النبي تجاوز الموضوع، فذهب بنفسه إلى سوق اليهود، وأجرى معهم حواراً هادئاً ذكّرهم فيه بالمعاهدة المبرمة بين الطرفين، وأن البغي والعدوان لن يجني إلا ثماراً مرّة، كما حصل لقريش يوم بدر قبل أقل من شهر.

ولكن اليهود الذين استبد بهم الغرور سخروا من هذه النصائح قائلين:

- لا يغرّنك يا محمد إنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة مكنتك من رقابهم، إنا والله لنن حاربناك لسوف ترى منا ما لم تره من غيرنا.

وفي هذه المناسبة هبط الوحي السماوي بهذه الآيات:

- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْدٌ مَّا ظَنُّوا أَنَّهُمْ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾.

وأمام هذا الغرور الأحقّق قرر النبي ﷺ تأديبهم فزحف بقواته، فيما لاذ اليهود بحصونهم المنيعّة.

فرض المسلمون حصاراً شديداً استمر أسبوعين، وكان الشرط

الوحيد لفك الحصار الاستسلام دون قيد أو شرط.
وأخيراً استسلم بنو قينقاع، وفتحوا أبواب الحصون.
أصدر النبي ﷺ عفواً عاماً، شرط الجلاء عن المدينة، وهكذا
غادرت هذه القبائل الشريرة يثرب مخلفة وراءها كميات هائلة من
الأسلحة وأدوات الصياغة، وحطّوا رحالهم في وادي القرى مدّة من
الزمن ثم اتجهوا صوب «اذرعات»^(١) في الشام.

هواجس الثأر

ظلت المناجات في مكّة تتصاعد مدّة عام، تؤججها أحقاد الثأر،
وتحرق بدخانها العيون، برزت هند زوجة أبي سفيان لتمثل نفسية
حاقدة لا تعرف سوى الانتقام بأي ثمن، ولم يكن موقف أبي سفيان
الذي أقسم على الثأر من الإسلام إلا مجرد صدى لما يموج في أعماق
تلك المرأة.

ومنذ معركة بدر ومكة تغلي بالحقد وتموج بالحمية .. حمية
الجاهلية، وكان الهدف الأكبر الثأر في أول فرصة، وقد بيّت المشركون
الذكرى الأولى لبدر موعداً للتحرك.

وخلال هذه الفترة التي تبلغ عاماً كاملاً وقعت حوادث لها دلالتها.

١- مدينة درعا السورية حالياً.

فقد تم تصفية كعب بن الأشرف اليهودي الذي ما انفك يهجو سيدنا محمد ﷺ ويحرض قريشاً على طلب الثأر، وبلغ استهتاره أن راح يشبب بنساء المسلمين، وكان لتصفيته صدى كبير فقد انكفأ اليهود على أنفسهم مذعورين.

ووقعت بعض الأعمال والتحركات العسكرية، حيث قاد النبي ﷺ بنفسه دورية قتال إلى مضارب «بني سليم» و«غطفان».

وهما قبيلتان كبيرتان تنتمي الأولى إلى العدنانيين، فيما تنتسب الأخرى إلى القحطانيين، وقد استوطنتا هضاب نجد في المناطق المتاخمة للمدينة المنورة، وتأتي أهميتها كونها واقعة على طريق التجارة بين مكة والشام، وكانت الأنباء قد تضافرت على تشكيل اتحاد بين القبيلتين ونوايا مبيتة لاجتياح المدينة على حين غفلة، ولم تصطدم الدورية المؤلفة من مئة فارس اصطداماً مباشراً بالقبيلتين اللتين فضلتا الفرار تاركيتين وراءهما ٥٠٠ بعير.

وفي تلك المدة أيضاً أغار أبو سفيان على أطراف المدينة في قوة مؤلفة من مئتي فارس، وقد قدم اليهود عوناً معلوماتياً عن نقاط الضعف في خطوط المدينة الدفاعية، فاستغل أبو سفيان الظلام، ودفع بمفرزة من فرسانه إلى أطراف المدينة فأحرقت منزلين ومجموعة من أشجار النخيل كما قتلت مسلمين.

وعندما أفاق المسلمون على هذا النبأ، أسرع النبي ﷺ فجهز قوة من رجاله لمطاردة المغيرين، غير أن أبا سفيان تمكن من الإفلات، لأن حملته مؤلفة من الفرسان فقط، كما أنهم راحوا يتخفون من مؤنهم وأثقالهم بإلقاء الطعام أثناء فرارهم، حيث عثر المسلمون في طريق المطاردة على كميات كبيرة من «السويق»^(١) حيث حملت الغزوة هذا الاسم.

وتبقى سرية زيد بن حارثة أهم عمل عسكري قبل نشوب معركة أحد.

كان زعماء قريش وبعد معركة بدر قد خاضوا جدلاً واسعاً حول الطريق البديل للتجارة مع الشام، فقد اسفرت بدر عن نتيجة مفادها أن الطريق الغربية التي تسلكها قوافل قريش التجارية إلى الشام لم تعد آمنة وأن عليهم سلوك الطريق الآخر وتحديد الطريق الشرقية، التي تتخلل هضاب نجد وبالرغم من صعوبة هذه الطريق وجهل تجار قريش الكامل بها، فقد عدت أفضل من الطريق السابقة باعتبارها طريقاً آمناً.

وأفادت أنباء الصحراء عن تجهيز قافلة تجارية بقيادة صفوان بن أمية ومعاونة أبي سفيان، وأن دليل القافلة الجديد رجل نجدي يدعى

١- مادة غذائية تعدّ القمح وخلطه بالعسل والسمن والحليب.

فرات بن حيان.

جهز النبي ﷺ حملة عسكرية قوامها مئة مقاتل وأسند قيادتها إلى زيد بن حارثة.

وفي أحد وديان نجد دهم المسلمون القافلة وهي ترد الماء، ولم يكن أمام أبي سفيان وصاحبه إلا الفرار، فاستولى المسلمون على القافلة دون مقاومة، ووقع في الأسر ثلاثة من حراسها كان الدليل أحدهم. وهكذا تابعت الأحداث حتى إذا أطل شهر شوال أفادت الأنباء عن تجهيز قريش لجيش كبير قوامه ثلاثة آلاف مقاتل.

ولم تمض خمسة أيام من شوال حتى كان جيش المشركين يغادر مكة في تجهيز قتالي غاية في التنظيم، ولا ننسى أن قريش قد وفرت أرباح القافلة التجارية التي أفلت بها أبو سفيان في بدر لتجهيز «جيش الثأر»، وكانت مبالغ طائلة بلغت خمسين ألف دينار آنذاك.

ولعل تواجد النبي ﷺ في قرية قباء إبان تلك الفترة يشير إلى تحسبه للطوارئ.

وبينما كان رسول الله يتأمل تموجات الصحراء، إذا بفارس يبدو من بعيد يحمل أنباء مكة المثيرة^(١).

١- كان العباس عم النبي قد بعث إلى النبي رسالة حول تفاصيل الحملة وذلك قبل مغادرته مكة بمعية الجيش.

فوق سفوح «أحد»

في الرابع عشر من شوال في السنة الثالثة من الهجرة شهد مسجد النبي ﷺ مجلساً عسكرياً لمناقشة الوضع الخطير.

وكان من رأي النبي ﷺ أن يتحصّن المسلمون في المدينة لإرغام قريش على مهاجمتها، وبهذا يمكن للمدافعين استخدام أساليب حرب الشوارع، في مكان يجهله العدو المهاجم، إضافة إلى الاستفادة من جهد المرأة المسلمة في مضاعفة المجهود الحربي، وقد طرح الرسول ﷺ رأيه بهدوء قائلاً بأدبه العظيم:

- فإن رأيتم أن تقيموا في المدينة وتدعوهم حيث نزلوا. فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم.

غير أن الشباب المتحمس للقتال كان يفضّل مواجهة الغزاة خارج المدينة، خاصّة أولئك الذين لم يذوقوا حلاوة النصر في بدر. وعندما لاحظ النبي ﷺ أن الأغلبية تفضّل المواجهة خارج يثرب، نهض فدخل منزله وارتدى زيه الحربي.

وقد شعر المسلمون أنهم بذلك قد أرغموا النبي ﷺ على رأي، فاعتذروا له وتركوا له اتخاذ القرار. وعندها قال النبي ﷺ:

- ما ينبغي لنبي إذا لبس «لامته» أن يضعها حتى يحكم الله.

وقد بدا الوضع متأزماً سيما وأن رغبة المنافقين كانت في عدم مغادرة المدينة، ولعل في إلحاحهم على البقاء ما يفسر رغبة النبي في تبني الرأي الذي يدعو إلى المواجهة خارج المدينة. وهكذا تحركت كتائب الجيش الإسلامي التي بلغ تعدادها ألف مقاتل.

وفي ثنيات الوداع، شاهد النبي كتيبة منفردة عن الجيش فسأل عنها فابلغوه بأنها كتيبة يهودية ترغب في مشاركة حليفها عبد الله بن أبي، غير أن النبي رفض ذلك بشدة قائلاً:

- لا نقاتل المشركين بالمشركين.

وفي منطقة الشوط حيث البساتين الواقعة بين جبل أحد والمدينة حدث تمرّد خطير إذ قرر عبد الله بن أبي ومعه ثلاثمئة من المقاتلين العودة إلى المدينة دون سبب واضح، ومهما كانت البواعث فإن الهدف من ذلك كان إحداث بلبلة في صفوف الجيش الإسلامي وهو على وشك الاشتباك.

وقد رأى فريق من الصحابة تأديب المتمرّدين، إلا أن النبي ﷺ رفض ذلك.

واصل النبي تقدمه بسبعمئة مقاتل لمواجهة جيش مؤلف من ثلاثة آلاف جندي مجهز بأفضل الأسلحة.

كان جيش المشركين قد تمركز في وادي قناة لقطع الطريق على تقدم الجيش الإسلامي ..

قاد النبي قواته عبر حرة^(١) بني حارثة متجهاً شمالاً صوب جبل أحد، وجاعلاً جيش المشركين غرباً، حتى وصل مدخل الوادي فعسكر بقواته تاركاً هضاب الجبل خلفه.

ألقي النبي ﷺ نظرة تأمل على طبيعة الأرض وميدان المعركة فرأى في جبل «عينين» موقعاً استراتيجياً من الناحية الحربية يمكن الاستفادة منه في حماية مؤخرة الجيش الإسلامي من حركة التفاف قد يقوم بها العدو، ولهذا حرص النبي على احتلال الجبل.

انتخب النبي ﷺ خمسين من أمهر الرماة وأمرهم بالمرابطة فوق الجبل الذي يدعى اليوم بجبل الرماة وهو على مسافة مئة وخمسين متراً من مقر قيادة الجيش الإسلامي غرباً على حافة الوادي الجنوبية. أصدر النبي تعليماته قائلاً:

- انضحوا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا ..
- احموا لنا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا

١- الحرة أرض بركانية حجارته سوداء نخرة كما لوانها مشوية بالنار، والحرات تحيط المدينة تقريباً.

تقدم على النبل، إنَّ لا نزال غالبين ما ثبتَّ مكانكم.

وأردف الرسول ﷺ مؤكداً أهمية الموقع استراتيجياً.

- إن رأيتُمونا يتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل اليكم،
وإن رأيتُمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم حتى
أرسل اليكم، وإن رأيتُمونا غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتُمونا نقتل فلا
تغيثونا، ولا تدافعوا عنا.

بدأ المشركون عملياتهم بهجوم قوة من المشاة تساندها كوكبة
الفرسان مستهدفة الجناح الأيسر من جيش الإسلام، وقد ارتدَّ
المهاجمون على أعقابهم بعد أن تعرَّضوا إلى مقاومة بأسلة، فقد
اشترك الرماة في جبل عينين وبعض المتمركزين في سفوح جبل أحد،
والمشاة بصدد الهجوم.

عاود المهاجمون الكرَّة ثلاث مرات وكانوا يخفقون في كل مرَّة.

وفي تلك اللحظات الحاسمة أصدر النبي أوامره بالهجوم
المعاكس فاندفع ثقل الجيش الإسلامي باتجاه لواء المشركين بغية
تحطيم معنوياتهم، وقد نجحت الخطة، إذ سرعان ما سقط اللواء بعد
معارك ضارية، وبدأت جبهة المشركين تتزلزل تحت وطأة الهجمات
الإسلامية.

وهكذا دبّت الهزيمة في صفوفهم، وفرت هند ومعها الجوّاري اللّاتي
جئن لتحرير المشركين، بعد أن رمين بالطبول والدّفوف، وأصبح همّ
الجميع النّجاة.

وفوق جبل عينين وعلى سفوحه، بدأ صراع من نوع آخر، صراع نفسي
رهيب، فالرّماة الذين كانوا يراقبون سير المعركة قد شهدوا انتصار
إخوانهم، وها هم يطاردون فلول المشركين في بطن الوادي ويجمعون
الغنائم فانبعثت في الأعماق حمى الغنيمة، وترك أغلبهم مواقعه
للحصول على ما يمكن الحصول عليه من الاسلاب، وهكذا تجسّدت
بوضوح تام مقولة «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»^(١)، وبالرغم
من صيحات قائد الرّماة وتذكيره لهم بوصايا النّبي إلّا أن النفوس التي
استولى عليها الطمع قد برّزت لهم عدم جدوى المرباطة في الجبل
سيما وإن النصر بات أكيداً.

وفي المعسكر الآخر كان خالد بن الوليد قائد سلاح الفرسان ينتظر
مثل هذه الفرصة، فدفع بقوّاته نحو جبل عينين ليسحق ما تبقى من
مفرزة الرّماة ويفاجئ الجيش الإسلامي بهجوم كاسح.

وأدرك المشركون أن الفرسان قد نفذوا حركة التفاف ناجحة فانقلبوا
نحو المسلمين وقاموا على الفور بهجوم معاكس، وارتفع لواء المشركين

١- كلمة مأثورة للإمام علي بن أبي طالب.

مرة أخرى وتغيّر بذلك الموقف جذرياً.

فقد الجيش الإسلامي تنظيمه تماماً وتضعضت صفوفهم، فألقوا ما في أيديهم من الغنائم وأصبح همهم الوحيد الخلاص من الكماشة التي سقطوا فيها.

وفي غمرة الفوضى انتشرت شائعة عن مصرع النبي ﷺ فعمت الفوضى ودبت الهزيمة.

ثبت النبي ﷺ في مقرّ قيادته ومعه أربعة عشر مقاتلاً فقط وراح يقاتل ببسالة قلّ نظيرها في التاريخ، وعلت هتافاته: أنا رسول الله هلموا اليّ. وكان لهذا الهتاف الأثر الكبير في تجمع بعض قوّاته فراح يقودهم صوب مرتفعات أحد في عملية انسحاب موفقة، فأُنقذ النبي بذلك ٩٠٪ من جنوده من خطر الإبادة.

الدرس الكبير

لقد تعلّم المسلمون في جبل أحد أبلغ درس في الطاعة، وأيقنوا جميعاً أن طاعة الرسول تعني النصر، وأن معصيته لا تعني شيئاً سوى الهزيمة والفشل والاختفاق.

في «أحد» الذي قال عنه رسول الله ﷺ «جبل يحبنا ونحبه» تجلّت عذابات الأنبياء، وصبرهم ومقاومتهم. لقد استهدف المشركون قتل

النبي، وتمركزت هجماتهم العنيفة في المنطقة التي يقع فيها مقرّ قيادته، فيما تشتت قوات المسلمين وفرّ بعضهم نحو المدينة وفكر البعض الآخر بإجراء مفاوضات مع أبي سفيان لاستصدار عفو منه.

كما أثبت النبي ﷺ عبقريته العسكرية فاستطاع بمهارة مدهشة تجميع قواته وإنقاذها من الإبادة.

وقف أبو سفيان في أدنى سفوح الجبل وصرخ:

- أعل هبل.

فجاء الجواب:

- الله أعلى وأجل.

- لنا العزى ولا عزى لكم.

- الله مولانا ولا مولى لكم.

بالرغم من كل شيء فقد شهدت تلك البقعة من دنيا الله أعظم ملحمة إنسانية عندما صمد رجال يعدّون بالأصابع حول الرسول وكان همهم حماية النبي بأي ثمن فراحوا يتساقطون قربهم كالفراشات وكل يوصي صاحبه بالاستبسال، فلا معنى للحياة بعد النبي ﷺ.

أن التاريخ ليذكر بإجلال مواقف الكثيرين منهم وفي طليعتهم علي

بن أبي طالب الذي راح يقاتل ببسالة حتى سُمع صوت جبريل يدوي بين السماء والأرض:

- لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

كما يذكر بسالة الحمزة وأبي دجاجة الأنصاري وسعد بن الربيع ومصعب بن عمير وغيرهم من الرجال الذين عاهدوا ربهم فممنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

لقد فعلت الجراح البليغة، والظماً والإعياء الشديد ونزف الدماء ومصرع الحمزة على ذلك النحو المؤسف فعلها المأساوي، فبدا وجه آخر الأنبياء غيمة حزينة تمطر على هون.

وبالرغم من حراجة الظروف، فقد كان هاجس النبي الوحيد المدينة المنورة، فقد يفكر المشركون اجتياحها؛ من أجل هذا أرسل النبي بطل الإسلام علي بن أبي طالب ليراقب قوات قريش عن كثب، وهل أنهم يمتطون في تحركهم الإبل أم الخيل، فإذا ركبوا الخيل فمعنى ذلك أنهم يريدون الإغارة على المدينة، أما إذا امتطوا الإبل فإنهم يفضلون الانسحاب إلى مكة.

وعندما شاهدهم علي يمتطون الإبل اطمأن النبي على الوضع في المدينة وقال بعزم فولاذي عجيب.

- والذي نفسي بيده لئن ارادوها «المدينة» لأناجزتهم.

رد الاعتبار

طارت الاخبار إلى المدينة عما حصل في جبل أحد، فهب السكان ولاهم لهم سوى السؤال عن شخص واحد هو النبي، وسجلوا بذلك أعظم آيات الوفاء والحب.

وبالرغم من الحزن العميق مما أصاب الجيش الإسلامي الذي فقد في معركته سبعين شهيداً فقد كانت هناك فرحة مكبوتة إثر سلامة النبي وعودته إلى المدينة.

وباتت المدينة تلك الليلة في حالة طوارئ قصوى، فالرجال المسلحون يحرسون مداخلها، فقد يفكر المشركون بالعودة لمهاجمتها في لحظة من لحظات الغرور، كما ألف الأوس والخزرج مفرزة لحماية المكان الذي يقيم فيه النبي ﷺ وقد انبعثت في الأعماق ذكريات ما حصل في وادي العقبة في أول لقاء لهم مع النبي ﷺ.

وفي صبيحة اليوم التالي للمعركة أصدر النبي القائد ﷺ أمراً بالاستعداد لمطاردة جيش قريش، وقد شملت الدعوة الذين اشتركوا في معركة الأمس فقط.

تحركت كتائب الجيش الإسلامي من جديد وسط دهشة اليهود

والمنافيين، الذين ذهلوا لحماس هذا الجيش لمطاردة العدو الذي قهرهم بالأمس.

عسكرت القوات الإسلامية في مكان يدعى حمراء الأسد.

وقد فوجئ جيش المشركين الذي عسكر هو الآخر في مكان يدعى الروحاء، وهو لا يبعد عن حمراء الأسد؛ فوجئ بالنبأ الجديد، ويبدو أن بعض قادة الجيش في قريش قد لاموا أبا سفيان لإحجامه عن اجتياح المدينة، ولهذا عسكروا في الروحاء لتداول الرأي، وفي غمرة الجدل داهمتهم أنباء الزحف الإسلامي.

كان أبو سفيان يدرك تماماً أن انتصارهم في أحد يعود إلى ترك الرماة مواقعهم في جبل عيين، ولهذا فضل عدم مواجهة المسلمين والاكتفاء بما حققوه، من نصر.

حاول أبو سفيان إرهاب المسلمين من خلال إرساله التهديدات ولكن الرسول ﷺ تجاهل كل ذلك وأعلن تحديّه فظل معسكراً في حمراء الأسد ثلاثة أيام، وكان المسلمون يوقدون النار ليلاً معاناً في التحدي. وهكذا وجد أبو سفيان نفسه مرغماً على الانسحاب فيما أعاد المسلمون الاعتبار لهيبتهم التي اهتزت بشدة قبل أيام.

وفي كل الأحوال كانت معركة أحد درساً بليغاً تعلم المسلمون

خلالها معنى الطاعة والانضباط، لأننا سنجد المسلمين فيما بعد لا يمتنون بأية هزيمة على الإطلاق.

وفي هذا العام نزلت آية تحريم الخمر، وحطّم المؤمنون آنية الخمر في لحظة انتصار الإرادة والإيمان.

محاولة الاغتيال

في العام الرابع الهجري وقعت سلسلة من الحوادث التي قد تبدو من بعيد حوادث مستقلة غير أن التمعن في بواعثها وأسبابها سيكشف عن خيط كان يربط فيما بينها لتسفر فيما بعد عن نتيجة ربما كانت الأقدار تحوكمها من قبل.

بعث النبي ﷺ أربعين رجلاً من أصحابه إلى أهل نجد من أجل تعليمهم شريعة الإسلام، فعدرت بهم قبائل من بني سليم فاضطروا للقتال حتى النفس الأخير.

كما وقع حادث مؤسف آخر عندما بعث الرسول ﷺ سبعة من أصحابه أيضاً إلى مضارب القبائل قريباً من مكة، وفي الطريق فوجئوا بكمين نصبته لهم قبائل «هذيل» فقتل رئيس البعثة مرثد بن أبي مرثد الغنوي وثلاثة من رجاله، وأسر الباقون تمكن أحدهم من الإفلات، غير أنه مات في الطريق متأثراً بجراحه، فيما بيع الاثنان إلى قريش، فنفذت

فيهما حكم الإعدام.

وبالطبع فإن هذين الحداث ينمان عن استخفاف القبائل العربية بالمسلمين كنتيجة طبيعة لما حصل في «أحد». فمن مجموع سبعة وأربعين رجلاً لقوا مصرعهم في حادثتي غدر جبانيتين لم ينج سوى شخص واحد وهو عمرو بن أمية الضمري، وقد أقدم هذا الأخير بعد أن نجا من تلك المذبحة على الثأر من بني عامر فقتل من أفرادها اثنين دون أن يعلم أن الرسول ﷺ كان قد أعطى لهما عهداً.

وفاء بالعهد قرر النبي دفع دية هذين الرجلين إلى أهليهما، وهكذا بدأت الحوادث تأخذ منحى آخر؛ ذلك أن معاهدة سارية المفعول تلزم يهود «بني النضير» بمشاركة المسلمين في دفع مثل هذه التعويضات، وهكذا توجه الرسول ﷺ بنفسه ومعه وفد يضم كبار الشخصيات الإسلامية إلى حصون بني النضير.

تظاهر اليهود بالترحيب بالوفد قائلين:

- نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت.

وفي تلك اللحظات وبسبب الطبيعة اليهودية ولدت مؤامرة دنيئة.

كان النبي جالساً في ظلال الحصن ينتظر وفاء اليهود، غير أن هذه الطائفة من البشر التي تشربت الغدر جيلاً بعد جيل فكروا باغتياله.

فبرقت العيون حقداً وتهامس المتآمرون فيما بينهم وكانت الفكرة إلهاء النبي ورجاله ريثما يتسلق «بن جحاش» أسوار الحصن ويقوم بدحرجة رعى الطاحون، ثم دفعه إلى حيث جلس النبي ﷺ، وهكذا سؤلت لهم أنفسهم.

وفاحت في الفضاء رائحة المؤامرة، وأدرك النبي من وراء تلك النظرات أن الأمور تجري على نحو غير طبيعي فغادر الحصون عائداً إلى المدينة.

ومن هناك وجه النبي ﷺ إنذاراً بالجلء عن المدينة، وأمهلهم عشرة أيام.

ويبدو أن اليهود قد ذهلوا لهذه المفاجأة، وبدأوا على الفور استعداداتهم للرحيل؛ وهنا يتدخل المنافقون لتفجير الوضع، وذلك بتحريض اليهود على رفض الإنذار واعدن إياهم بتقديم العون إذا اقتضى الأمر.

وهكذا رفض بنو النضير الإنذار سيما وقد انضم إليهم بنو قريظة وبدأت الاستعدادات العسكرية في حفر الخنادق وإقامة المتاريس ونقل الحجارة إلى سطوح المنازل، وتخزين كميات كبيرة من الطعام تكفي لمدة عام.

وفي المدينة أعلن النبي حالة النفير العام وأصدر أمراً بالزحف نحو معاقل الغدر.

أقام النبي مقرّ قيادته في مكان قريب من الحصون، فصب اليهود وابلًا من السهام مستهدفين خيمة القائد واستدعي «عزوك» أحد رماة اليهود المشهورين لتحقيق أحلامهم بتصفية النبي ﷺ. وبدأ هذا اليهودي بتوجيه السهام نحو الخيمة، وراحت سهامه تتساقط قريباً منها.

قرر المسلمون نقل مقر القيادة بعيداً عن مرمى السهام، ومن الجدير ذكره أن عزوك هذا وقع فيما بعد في كمين نصبه له علي بن أبي طالب فقتل وقتل معه أفراد العشرة.

وانهارت مقاومة اليهود بعد عشرين يوماً من الحصار فأرسلوا مندوبهم إلى النبي للتفاوض بشأن الجلاء.

وتم الاتفاق خلال المفاوضات على ما يلي:

- جلاء يهود بني النضير عن يشرب جلاءً تاماً.
- تسليم كافة أنواع الأسلحة.
- لليهود الحق فيما يمكنهم حمله من الأموال مهما كانت قيمتها أو نوعها.

- يتعهد المسلمون لبني النضير بسلامة أرواحهم ما داموا في المناطق الخاضعة للنفوذ الإسلامي.

وبعد الإعلان عن الاتفاق شرع اليهود بتخريب بيوتهم وتحويلها إلى أنقاض وحملوا معهم أموالاً حتى ناءت بها ستمئة بعير، وارتدوا أفخر ثيابهم، وحاولوا تغطية هزيمتهم بضرب الدفوف ونفخ المزامير يتقدمهم حيي بن أخطب وغيره من زعمائهم.

وبجلاء بني النضير لم يبق من اليهود سوى قبيلة بني قريظة. وبالطبع لم يف المنافقون بوعودهم ونزلت آيات السماء تفضحهم وتبارك انتصار الإسلام.

ويبقى الشعور بالرعب الذي يعد نتيجة طبيعة للخيانة والغدر العامل الأساس في انهيار بني النضير وخروجهم المذل.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿١﴾﴾^(١).

وبالطبع لم يعتبر المنافقون ولا يهود بني قريظة لأننا سنجدهم

يواصلون تأمرهم وغدرهم وقد بلغت الذروة في أضخم مؤامرة يهودية ضد الإسلام وذلك في العام الخامس الهجري.

ولا ننسى أن نشير إلى أن العام الرابع الهجري شهد ميلاد الحسين بن علي السبط الثاني لسيدنا محمد ﷺ بعد الحسن بن علي، وبهذا تبلور بشكل واضح مفهوم أهل البيت ﺍﻟﺒﯿﺖ الذي ضم إضافة إلى النبي ﷺ، ابنته وصهره وسبطيه.

عام الحسم

تعدّ السنة الخامسة من الهجرة سنة للحسم، فقد واجه المسلمون أكبر تحدّ استهدف الإسلام من الجذور، وذلك عندما شهدت الجزيرة العربية أضخم تجمع قبلي لغزو المدينة، حيث لعب اليهود دوراً قذراً في تحريض قبائل عربية عديدة وإقناعها باجتياح المدينة.

وقد سبق هذه الحادثة وقائع عديدة، فعلى الصعيد التشريعي فرض الله سبحانه الحج على المسلمين ما استطاعوا إليه سبيلاً، كما تمّ زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش بقضاء إلهي، ثم حدث الطلاق، حيث أقدم النبي ﷺ فيما بعد على الزواج من ابنة عمته هذه، في خطوة لتحطيم عرف جاهلي كان سائداً آنذاك.

الأحزاب

ظل الصراع التقليدي بين قريش والمسلمين في مستواه، فيما نشهد تصاعد الحقد اليهودي ليتخذ اشكالا خطيرة جداً، غير أن اليهود وحتى العام الخامس الهجري لم يتمكنوا من القيام بعمل حربي كبير، بل اقتصر نشاطهم على التآمر والدس ومحاولة تمزيق وحدة الصف الإسلامي، وذلك من خلال توظيف المنافقين لتحقيق ما ربهم الدنيئة.

وبعد جلاء بني النضير عن المدينة توجه حيي بن أخطب إلى «خيبر» يحمل معه حقه وعقده النفسية تجاه الإسلام ورسوله.

ويمكن القول إن غزوة الخندق إنما هي مؤامرة يهودية ولدت في حصون خيبر وأن حيي بن أخطب هو العقل المدبر لأضخم عملية عسكرية كادت أن تعصف بالإسلام.

في مطلع شهر شعبان في السنة الرابعة للهجرة أي بعد مرور أربعة أشهر على جلاء بني النضير، غادر وفد يهودي بزعامة حيي بن أخطب حصون خيبر متجهاً إلى مكة لمناقشة فكرة الغزو.

وقد تحمست قريش لمخطط الغزو سيما وقد فكر له اليهود وأسهموا في تمويله مع كونهم أصحاب كتاب سماوي مما يمنح المسألة بعداً

دينياً، وقد بلغت سفالة الوفد أن أبا سفيان عندما سألهم قائلاً:

- يا معشر يهود إنكم أهل كتاب وأعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

فأجابوا بكل خسة ووقاحة:

- بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

لقد بلغ حقدهم أن فضلوا الوثنية على ديانة تدعو إلى عبادة الإله الواحد الأحد.

غادر الوفد اليهودي مكة إلى مضارب غطفان في بادية نجد للقاء عيينه بن حصن الفزاري زعيم أكبر تجمع قبلي في الجزيرة العربية.

وكان الفزاري هذا يتميز بالغلظة والجفاء إضافة إلى حماقة، ورغم كل هذا فقد كان السيد المطاع في غطفان ..

ولم يستغرق الوفد في إقناع زعيم غطفان بفكرة الغزو سيما وأن فكرة اجتياح المدينة ونهبها كانت حلماً لمعظم القبائل العربية منذ مأساة أحد.

وأُسفرت المفاوضات عن اتفاق يقضي بالتزام غطفان بتجنيد ستة آلاف محارب مقابل تقديم اليهود ثمن محصول خيبر من النخيل لسنة واحدة.

أبلغ الوفد زعماء مكة بتفاصيل الاتفاق من أجل التنسيق بين قوات الأحزاب؛ وعمّت قريش موجة من الفرح الممزوج بالحق والانتقام.

وهكذا اندمج الخبث اليهودي والحق القريشي والأطماع الغطفانية ليسفر عن جيش كبير بلغ تعدادة عشرة آلاف مقاتل.

كانت المعلومات التي حصل عليها النبي ﷺ تؤكد بشكل جازم عن نية الاتحاد الثلاثي - إذا صح التعبير - في احتلاله المدينة فاتخذ الرسول ﷺ إجراءات سريعة بعقد اجتماع عسكري ضم الشخصيات الإسلامية البارزة لمواجهة التحدي الجديد.

ولما كانت قوة ضخمة بشرياً فقد تقرر التحصن في المدينة نفسها. كانت تضاريس الأرض المحيطة بالمدينة تشير إلى أن الأحزاب سوف يختارون شمال المدينة هدفاً للاجتياح؛ ولهذا تركز الاهتمام في هذه المنطقة لاتخاذها منطقة تحشد دفاعية.

وفيما كان المسلمون في جدل حول خطة الدفاع طرح سلمان الفارسي الذي اعتنق الإسلام حديثاً فكرة الإنقاذ التي تلخص في حفر خندق^(١) يحول دون تقدم الغزاة في احتلال المدينة، وقد تحمس المسلمون لهذه الخطة وباركها النبي فكانت في طليعة الاستعدادات

١- مفردة فارسية في الأصل وهي تحويل لمفردة «كندن» ومعناها الحفر

العسكرية لمواجهة الغزو، إن لم تكن محورها الرئيسي.

وهكذا بوشرت عمليات الحفر في مطلع شهر رمضان المبارك، وحمل المسلمون وسائل الحفر في أضخم عملية دفاعية تشهدها الجزيرة العربية لأول مرة.

وكان على الجيش الإسلامي أن يحفر خندقاً بطول خمسة آلاف ذراع وبعرض تسعة أذرع وبعمق سبعة أذرع.

وكانت عمليات الحفر تمضي قدماً مدة شهر كامل في ظروف شاقة فقد كان الفصل شتاءً ورياح «كانون» شديدة البرودة، إضافة إلى محاولات التخريب وتثييط الهمم التي كان يقوم بها عادة المنافقون ومن ورائهم اليهود.

غير أن مشاركة النبي ﷺ في أعمال الحفر قد ذلل كثيراً من الصعوبات وبعثت روح الحماس في نفوس المدافعين.

كما أن شهر رمضان حيث رحلة الجوع والظمأ المقدسة، قد صنعت إرادة أصلب من الجبل وأقوى من رياح كانون القارسة الباردة.

ولاننسى أن نشير إلى ذلك المشهد المؤثر يوم حملت فاطمة الزهراء طعاماً إلى والدها العظيم وانطلقت به نحو الخندق، وكان عبارة عن رغيف خبز أعدته بنفسها، وجلس النبي ﷺ يتناول طعام الإفطار وهو

يتمتم شاكرًا:

- والله ما دخل جوفي طعام منذ ثلاث.

وعادت فاطمة إلى منزلها تبكي من أجله .. من أجل آخر الأنبياء، حيث تتآمر القبائل العربية واليهود والذين في قلوبهم مرض لقتله وإطفاء النور الذي جاء به.

وكانت عملية حفر الخندق تتزامن مع علمية أخرى هي جمع المحاصيل الزراعية خارج المدينة وإدخالها لكي لا يستفيد منها العدو؛ إضافة إلى نقل النساء الأطفال وتجميعهم في الحصون والمواقع المنيعّة الآمنة، والقيام بأعمال الدورية اثناء الليل تحسباً للطوارئ. أنهى الجيش الإسلامي أعمال الحفر قبل ثلاثة أيام من وصول قوات العدو، واتخذوا مواقعهم قريباً من الخندق.

الهاجس اليهودي

كانت خطة الغزو تقضي باندفاع جيوش الأحزاب من الشمال على شكل قوس؛ وفي نفس الوقت يقوم يهود بني قريظة وهم في حدود الألف مقاتل بمفاجأة الجيش الإسلامي وطعنه في الظهر.

وبالرغم من وجود معاهدة بين المسلمين وبني قريظة تلزم الطرفين

بالدفاع المشترك عن المدينة، إلا أن النبي ﷺ كان يدرك أن النفسية اليهودية نفسية معجونة بالخيانة والغدر، ولهذا أخذ بنظر الاعتبار قيام اليهود بضربة مفاجئة فاحتاط للأمر، فانتخب لحراسة المدينة مفرزين وكلفهما القيام بأعمال الدورية حول منازل بني قريظة.

أحدثت جيوش الأحزاب بالمدينة من الشمال وكانت المفاجأة عندما رأى أبو سفيان ومعه مدبر فكرة الغزو اليهودي حيي بن أخطب شيئاً عجيباً.

رأى الغزاة أحلامهم تتبخر أمام خندق هائل. وتمتم أبو سفيان بحقده؟

- إن هذه المكيدة ما كانت العرب تعرفها.

ولم يكن من خيار أمام الأحزاب سوى فرض الحصار.

كانت الظروف في غاية الخطورة، فعشرة آلاف مقاتل خارج المدينة ينتظرون الفرصة للانقضاض، وفي الداخل فاحت رائحة الغدر اليهودي فقد ينقض ألف مقاتل لطعن خاصرة الجيش الإسلامي.

وكان المنافقون والذين في قلوبهم مرض يتسللون هاربين من صفوف القوات الإسلامية عائدين إلى منازلهم، حتى لم يبق مع النبي من مجموع ثلاثة آلاف سوى ألف مقاتل فقط.

وفي هذه الظروف الخطيرة قام النبي ﷺ بمناورة سياسية لتخفيف الضغط عن المدينة، خاصة وقد أعلن اليهود «بنو قريظة» نقضهم المعاهدة مما فت في عضد المسلمين الذين باتوا يترقبون الطعنة اليهودية بين لحظة وأخرى.

وفي ليلة عاصفة استدعى النبي زعيم قبائل غطفان عيينة بن حصن الفزاري للاجتماع به والتفاوض معه حول صيغة للسلام.

كان النبي يدرك أن بواعث غطفان في عملية الغزو هو الطمع في الأسلاب ونهب المدينة.

استجاب القائد الغطفاني وتسلسل مع الحارث بن عوف سرّاً حيث وجدا من يساعدهما على اجتياز الخندق ثم إرشادهما إلى مقرّ القيادة الإسلامية

عرض النبي فكرة الاتفاق: توقف غطفان عن القيام بأي عمل حربي والانسحاب؛ في مقابل ذلك يدفع المسلمون ثلث محصول المدينة من الثمار لمدة عام واحد.

وقد وافق زعيم غطفان على الفور، وقبل تحرير الاتفاق اشترط النبي موافقة الأوس والخزرج لأن ثمار المدينة ملك لهاتين القبيلتين، لهذا

استدعى النبي سعد بن معاذ^(١) سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج، وعندما حضر الزعيمان واطلعا على نص الاتفاق قال سعيد بن معاذ:

- يا رسول الله أمر تحبّه فتصنعه أم شيء أمرك الله به. قال النبي ﷺ:
- لو أمرني الله ما شاورتكما.. ولكن رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فأردت أن أكسر شوكتهم.

قال سعد:

- يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم «غطفان» على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لنعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة الإقربى «ضيافة» أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نقطعهم اموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف.

ابتسم النبي لهذا الحماس، فيما لمس القائد الغطفاني إصراراً عجيباً على الاستبسال حتى الموت، فنهض مغادراً خيمة الرسول ﷺ وفي نفسه تصميم على العودة والانسحاب.

وتناول سعد صحيفة الاتفاق ومحا بنودها.

حقق اللقاء أهدافه السياسية؛ لأن غطفان أوقفت عملياتها

١- جرح في مناوشات الخندق وتوفى بعد شهر.

العسكرية على الرغم من مرابطتها في مواقعها.

ظل الموقف على حاله، مناوشات بالسهم، ودوريات قتالية تجوب جانبي الخندق لدى الطرفين.

ثم حدث تطور عسكري خطير عندما نُقِذت مجموعة من الفرسان من قوات الغزو عملية اقتحامية جريئة في محاولة لنقل المعركة إلى ما وراء الخندق في داخل المدينة؛ ويبدو أن قائد المفزة عمرو بن عبد ود الذي كان معدوداً من أبطال قريش يتمتع بلياقة حربية عالية جعلت الكثيرين يحجمون عن مواجهته.

عبرت المفزة الخندق وراح عمرو بن عبد ود يسخر من الجيش الإسلامي؛ وبالطبع لم يطل ذلك فقد نهض بطل الإسلام الخالد علي ابن أبي طالب للمواجهة، وتلقين الغزاة درساً في الفروسية لم تشهد الجزيرة له نظيراً.

عرض علي ابن أبي طالب على خصمه اعتناق الإسلام؛ فرفض ثم عرض عليه الانسحاب والعودة من حيث جاء، بالطبع رفض ذلك أيضاً، ولم يبق سوى الخيار الثالث، فقال علي عليه السلام:

- أدعوك إلى القتال.

وعدّ الفارس الذي عبر الخندق هذه الدعوة تحدياً فقفز من فوق

فرسه، وسدّد لعلّي ضربة جبّارة تفادها فتى الإسلام، الذي ردّ الضربة بأقوى منها ولتكون فيها نهاية المعتدي.

كَبُرَ الجيش الإسلامي وعلت في الفضاء هتافات «الله أكبر»، وإثر ذلك فرّ أفراد المفزة فقتل أحدهم وجرح بعضهم.

وتكرر حادث الاقتحام إذ اندفع نوفل بن عبد الله بن المغيرة لعبور الخندق، فابتلعتة الهوة لتكون فيها نهايته.

عرض أبو سفيان مئة من الإبل مقابل انتشال جثته، غير أن النبي رفض ذلك وسمح لهم بانتشاله دون مقابل قائلاً:

- خذوه فإنه خبيث؛ خبيث الدية.

تحركات يهودية

حاول اليهود القيام بعمل حربي ما، فأرسلوا أحد جواسيسهم للقيام بمهمة استطلاعية.

وشاهدت صفية عمّة النبي ﷺ وشقيقة الحمزة الشهيد، ذلك اليهودي وكانت ترعى النساء الأطفال في أحد الحصون، فلفتت نظر حسان بن ثابت الشاعر إلى الخطر، غير أن الأخير أحجم عن منازلته، فاضطرت صفية إلى ترك الحصن ومنازلة اليهودي الذي لقي مصرعه على يدها.

وقد أثار ذلك الحادث مخاوف اليهود الذين ظنوا أن النبي قد خصص قوات كبيرة لحماية تلك المنطقة.

مرّت ثلاثة أسابيع أخفقت خلالها كل المحاولات من أجل اجتياز الخندق وحسم الموقف.

وفي محاولة لإرهاق أعصاب المسلمين قرر أبو سفيان القيام بعمليات التجوال على الخيل ليل نهار، وكان يتناوب على قيادة الفرسان خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل؛ وقد لعبت هذه المناورات والرياح الباردة الشديدة، وإشاعات المنافقين دوراً في زعزعة معنويات المسلمين إلى حدّ ما؛ وخير صورة للموقف هو ما جسده الآيات من السورة التي حملت اسم الأحزاب.

- ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا ١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٢﴾ (١).

وعندما أوشك الأسبوع الرابع على الانتهاء تسلل نعيم بن مسعود وهو من قبائل غطفان إلى المعسكر الإسلامي وأعلن أمام النبي اعتناق الإسلام، وأنه مستعد منذ الآن للقيام بأية مهمة.

فقال النبي ﷺ بعد ان لمح فيه ذكاء غير عادي:

- إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة.

وانطلق نعيم بن مسعود من فوره إلى حصون قريظة، ثم كر عائداً إلى معسكر الأحزاب^(١).

رياح النصر

اشتد هبوب الرياح وبلغت شدتها إنها كانت تجتث أوتاد الخيام وتطفئ مواقد النيران وكانت تلك الليلة العاصفة، ليلة شديدة السواد، وقد غمر الظلام الأشياء وأحاطها بغلالة من الغموض والأسرار.

ورفع النبي ﷺ يديه إلى السماء يستمد الله عز وجل النصر، وانفتحت أبواب السماء، بالنصر، وبدت العاصفة مزمجرة غاضبة، تمزق خيام الذين كفروا إنهم لا إيمان لهم.

كان أبو سفيان القائد العام قد قرر خوض المعركة الحاسمة بأبي ثمن، غير أن الرياح العاتية والأمطار الرعدية الغزيرة قلبت الأمور رأساً على عقب. وإذا بأبي سفيان يعقد جلسة طارئة لبحث فكرة

١- تمكن من تفجير أزمة في الثقة بين اليهود وقوات الأحزاب، مما دفع بالطرفين إلى مراجعة حساباتهما واتخاذ قرارات مناسبة.

الانسحاب قائلاً:

- يا معشر قريش! لقد هلك الكراع والخف^(١) واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم ما نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، وما يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل.

وفي غمرة الظلام بدأت الاستعدادات للانسحاب، فيما قامت فرقة من الفرسان بتغطية عملية الانسحاب وحماية مؤخرة جيش الأحزاب من هجوم محتمل قد يشنه المسلمون.

وعندما أشرقت شمس اليوم التالي إذا بالجانب الآخر من الخندق يروي قصة فرار الأحزاب.

كان منظر الخيام الممزقة والرماد والأوحال والخيول الميتة، يصور ببلاغة مدى رعب الليلة الفاتنة.

عمت الفرحة ربوع المدينة وقد صدق الله وعده:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٢).

وهكذا أصدر النبي ﷺ أمره إلى جنود الإسلام بالعودة إلى منازلهم

١- تعبير عن الإبل والخيول.

٢- الأحزاب: ٩

بعد حصار دام ثلاثين يوماً، وقد أبلغ الرسول رجاله أن هذا الغزو سيكون آخر محاولة عسكرية تقوم بها قريش:

- لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا.

حصار الغدر

أيقن يهود بني قريظة بأن ساعة القصاص قد حانت وأن لهم أن يحصدوا نتائج غدرهم وخيانتهم؛ فاختبأوا خلف حصونهم.

لقد ارتكبت هذه القبيلة التي تعمل في دباغة الجلود خيانة مزدوجة فهي لم تتناس معاهدة الدفاع المشترك عن المدينة في حال تعرّضها إلى غزو ما، بل راحت أبعد من ذلك في دعم الغزاة والتفكير في طعن الجيش الإسلامي من الخلف.

وبعد يوم واحد من رحيل جيوش الأحزاب، أعلن النبي ساعة الحسم مع اليهود، إذ ارتفع صوت بلال:

- من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.

وسلم النبي اللواء إلى بطل الإسلام علي بن أبي طالب قائلاً له:

- كن في مقدمة الجيش واسبقنا.

وانطلق علي يقود فصائل المقاتلين حتى إذا أشرفوا على الحصون

انهالت الشتائم على النبي فردّ علي بأدب الإسلام.

- السيف بيننا وبينكم.

وصل النبي ﷺ وقد أحكم المسلمون الحصار؛ وكان الشرط الوحيد الاستسلام دون قيد أو شرط.

وبعد عشرين يوماً بعث اليهود وفداً للتفاوض وترتيب عملية الجلاء أسوة بإخوانهم من بني النضير.

وكان موقف الجانب الإسلامي ثابتاً لا يتزعزع، وعرض اليهود مرّة أخرى، بعد أن بلغ الحصار ذروته، استعدادهم للجلاء عن يثرب وتركهم كل ما يملكون للمسلمين.

كان اليهود يماطلون في الاستسلام، فأصدر النبي أمراً بالاستعداد للهجوم واقتحام الحصون عنوة.

وعندما شاهد اليهود تأهب الكتائب الإسلامية، وانتظارها شارة البدء، طلبوا إيقاف الهجوم، وأعلنوا استسلامهم دون قيد أو شرط.

وألقي اليهود السلاح وبادروا إلى فتح حصونهم وقلاعهم، وهتف سعد بن معاذ وقد رضي حكمه الجميع:

- آن لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم.

كان سعد يعرف «التوراة» حيث حرّفوا الكلم عن مواضعه ليسوموا البشر الموت والفناء.

كان يدري ما في الإصحاح من التثنية من ربح صفراء لا تبقي ولا تذر: «حين تقترب من المدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فان أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة غنيمة تفتحها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك».

وهكذا أذاقهم سعد حكم توراتهم التي حرّفوها بأنفسهم وأذاقوها الأمم، وسقطت رؤوس الخيانة والغدر بما في ذلك رأس حيي بن اخطب مخطط فكرة الغزو والفناء.

الطريق إلى مكة

في العام السادس الهجري وقعت بعض الحوادث الهامة فقد أغارت غطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزاري على ضواحي المدينة وقتلت أحد الرعاة وسأقت قطعان الإبل، فأرسل النبي فرقة لمطاردة المغيرين استطاعت استرداد نصف الإبل.

كما قاد النبي ﷺ بنفسه جيشاً لمداهمة بني المصطلق بعد انتشار أخبار حول استعدادهم لحرب المسلمين، ودارت معركة ضارية انتصر فيها الجيش الإسلامي.

وقد شهد هذا العام عمليات عسكرية تأديبية للقبائل التي تحاول أو تفكر بالإغارة على المدينة.

وعلى صعيد الأحداث العالمية وقع حادث كان له صداه في الجزيرة العربية، عندما انفجرت الحرب بين أكبر دولتين في العالم الفرس والروم، حيث ألحق الروم بالفرس هزيمة ساحقة واستردوا فيها سوريا والمناطق المحتلة في آسيا الصغرى، وتحققت بذلك نبوءة القرآن الكريم، يوم كان المسلمون في مكة معذبين مقهورين فضاغف انتصار الفرس على الروم آلامهم^(١) حتى إذا حل العام السادس الهجري

١- كانت الأعوام من (٦٠٢-٦١٠) فترة سيئة للإمبراطورية البيزنطية، فقد عمت البلاد اضطرابات واسعة وبدت الحكومة عاجزة تماماً، فانتهز خسرو پرويز ملك الفرس آنذاك، الفرصة وبدأ يوجه ضرباته المدمرة لخصمه اللدود، فنظم حملات عسكرية بدأت مع عام ٦١٠ وحتى عام ٦١٩، وحقق المهاجمون انتصارات ساحقة في جبهات عديدة ففي الأعوام ٦٠٥ الى ٦١٣ م احتل الفرس مدن عديدة من بينها: دارا، آمد، اوديسا، نصيرا بوليس، حلب، آيايا، ودمشق.

وقد أغرت هذه الانتصارات الفرس فاعلن ملكهم (پرويز) حرباً شاملة ضد المسيحية وأيده في ذلك جموع غفيرة من اليهود فزحف باتجاه (اورشليم) واحتلها عام ٦١٤ بعد ان راح ضحية المعارك ٩٠١٠٠٠ مسيحي، واحرقت الكنائس بما في ذلك كنيسة

اشتعلت الحرب بين الامبراطوريتين، في نينوى حيث هزم الفرس هزيمة ساحقة وتلاحقت الأحداث، إلى أن انتهت بإقدام «شبرويه» ابن كسرى على خلع ابيه وقتله، ثم عقد صلحاً مع هرقل إمبراطور الروم، وترتب على ذلك إعادة «الصلبوت»^(١) إلى بيت المقدس مرة أخرى. وابتهج المسلمون هذه المرة فيما استاء المشركون وقد تذكر الجميع آيات السماء.

﴿الْم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾^(٢).

وفي غمرة الحوادث أعلن النبي ﷺ عزمه على أداء العمرة وبدأت الاستعدادات للتوجه صوب مكة، وبلغ عدد الذين لبوا دعوة الرسول ألفاً وأربعمائة رجل، وما يميز هذا الحشد أنه لم يصطحب معه من التجهيزات العسكرية غير السيوف، حتى يمكن القول انها مسيرة للسلام إذ أعلن النبي ﷺ أنه لا ينوي القتال ابداً.

وبلغ التوتر في مكة ذروته وسادت موجة من الحقد والحمية الجاهلية. والتصميم على منع النبي وأصحابه من دخول مكة بأي

القيامة واستولى الفرس على صليب (الصلبوت) وتم نقله الى ايران.

١- خشبة الصليب الذي يعتقد النصارى ان المسيح صلب عليها.

٢- الروم: ١-٣

ثمن.

وانطلقت «القصوى» تطوي المسافات باتجاه مكة حتى إذا وصلت منعطفاً جبلياً يشرف على الحديبية بركت، فقال بعض أصحابه:

حرنت الناقة؟

فأجاب النبي ﷺ:

- لا، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة.

وأردف:

- والذي نفس محمد بيده لا تدعني قريش اليوم إلى خطة يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها.

وهكذا عسكرت قوات الإسلام في الحديبية.

وأرسلت قريش وفودها لإقناع الرسول ﷺ بالعودة إلى المدينة، والتلويح بالحرب، وكان الحوار يتكرر في كل مرة!

- هل جئت معتمراً أم محارباً.

- إنّا لم نجئ لقتال أحد، جئنا معتمرين.

وبالرغم من قناعة الوفود بنوايا النبي ﷺ في السلام، إلا أن زعماء مكة رفضوا بعناد فكرة دخول النبي.

وشهدت الصحراء بين «الحديبية» ومكة تتابع الوفود دون جدوى.
ورأى النبي ﷺ أن يرسل وفداً من قبله إلى مكة ليشرح لقريش
أهداف الزيارة؛ ولم يجد النبي أفضل من عثمان بن عفان رئيساً للوفد
لقربته من أبي سفيان. وطلب النبي من مبعوثه أن يحدد حواراً مع
قريش في هذا الإطار:

- إِنَّا لَم نَأْت لِقِتَال أَحَد، وَإِنَّمَا جِئْنَا زَوَاراً لِهَذَا الْبَيْتِ مُعْظِمِينَ
لِحَرَمَتِهِ وَمَعَنَا الْهَدْيُ نَنْحِرُهُ وَنَنْصُرُ.

وبالرغم من ترحيب قريش بعثمان إلا أنها لم تبد مرونة تجاه رغبة
المسلمين.

وحدث تطور زاد في توتر الوضع وخطورة الموقف، إثر إرسال قريش
الحليس بن علقمة سيد الأحابيش في مكة وكان قد ساء منظر
المسلمين في البرية ينتظرون الإذن لدخول مكة فهتف متأثراً:

- سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَصُدُّوا عَنِ الْبَيْتِ.

ولقد حاول الحليس إقناع زعماء مكة بالسماح للمسلمين بالحج
فقالوا باستخفاف:

- إِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِي لَا عِلْمَ لَكَ.

فرد سيد الأحابيش غاضباً.

- والله ما على هذا حالفناكم، أَيْصَدَّ عن بيت الله من جاءه معظماً؟! وأردف مهدداً:

- والذي نفس الحليس بيده لتخلنَّ بين محمد وما جاء له أو لأنفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد.

وقد ادى هذا الموقف إلى أن تبدي قريش بعض المرونة، فأرسلت وفداً برئاسة سهيل بن عمرو للتفاوض مع النبي ﷺ حول نقطة جوهرية هي عودة النبي إلى المدينة وتأجيل زيارته إلى العام القادم.

طلب النبي ﷺ من وفد قريش، وقبل البدء بأية محادثات.

إطلاق سراح الوفد الإسلامي الذي احتُجز دون مبرر.

ويبدو أن تيار السلام قد سيطر أخيراً في أوساط مكة فتجاوبت قريش مع مطالب المسلمين وأطلق سراح الوفد الذي عاد إلى الحديبية.

وأسفر الحوار عن اتفاق من أربعة بنود، وعندما شرع علي بن أبي طالب بتحريرها وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

رفض المفاوض القرشي معرباً عن استنكاره وقال:

- لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم.
- وأشار النبي ﷺ بموافقته على ذلك فكتب:
- هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.
- وأبدى سهيل اعتراضه مرة أخرى قائلاً:
- لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .. اكتب محمد بن عبدالله.
- فعلق النبي بحزن:
- والله إني رسول الله وإن كذبتُموني.
- التفت سهيل إلى علي وطلب أن يمحو «رسول الله»، فرفض.
- وهنا أمسك النبي صحيفة الاتفاق ومحاها بنفسه.
- وهكذا تمت صيغة الاتفاق بشكلها النهائي:
- باسمك اللهم
- هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين...).
- وقد تضمن الاتفاق إضافة إلى إنهاء حالة الحرب عشر سنوات بنوداً ثلاثة أخرى:

- أن يسلم النبي من يأتيه من قريش مسلماً دون إذن وليه، في مقابل عدم التزام قريش بإعادة من يسلم نفسه من المسلمين.
- إن الباب مفتوح للجميع في عقد التحالفات مع أي من الطرفين إضافة إلى البند الذي عدته قريش جوهرياً وهو:
- عودة النبي وأصحابه هذا العام على أن يؤدّوا العمرة في العام القادم دون تجهيزات عسكرية سوى السيوف، فيما تخلي قريش مكة أثناء الزيارة.
- وأعلنت قبيلة خزاعة فور توقيع الاتفاق تحالفها مع النبي، فيما أعلنت قبيلة بني بكر تحالفها مع قريش.
- وحدثت أزمة في الجانب الإسلامي، بعد أن استنكر عمر بن الخطاب الاتفاق وعدّه مذلاً، وخاطب النبي بلهجة فيها نوع من الفظاظة التي اشتهر بها، قائلاً:
- لست نبي الله حقاً؟! وجاء صوت النبي هادئاً معبراً عن خلق سماوي رفيع:
- بلى.
- ألسنا على حق، وعدّونا على باطل؟!

- بلى.
- أليس قتلانا في الجَنَّةِ وقتلاهم في النار؟!
- بلى.
- وهنا قال عمر بحدّة:
- ففيم نعطي الدنية في ديننا إذا؟!
- فقال النبي بهدوء:
- إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري.
- فقال عمر وقد ساوره الشك:
- أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به
- قال النبي:
- بلى. فأخبرتكَ إنك تأتيه عامك هذا؟
- فأجاب عمر:
- لا.
- وانصرف غاضباً.
- وفي تلك اللحظات والمسلمون مستأوون من نتائج الحديدية،

هبط جبريل يحمل سورة الفتح.

وقد حققت اتفاقية السلام هذه المنافع لكلا الطرفين، فمثلاً أفادت قريش من الاتفاقية إعادة فتح طريق القوافل التجارية الغربية؛ الأمر الذي ساعد على تخفيف أزمتها الاقتصادية كما أنها حفظت لها ماء الوجه بصدّها النبي ﷺ عن زيارة البيت الحرام.

أما الجانب الإسلامي فقد حقق كثيراً من المنافع في طليعتها: تعاطف الرأي العام وتيار المعتدلين في مكّة عندما ظهر للجميع الاحترام العميق الذي يكنه المسلمون للكعبة إضافة إلى فتح أبواب مكّة في العام التالي، وهو أمر كانت له آثاره البعيدة في تعزيز نفوذ الإسلام؛ ولاننسى الإشارة إلى أن الاتفاق يعني أول اعتراف رسمي لقريش بالدولة الإسلامية واعتبار الإسلام أحد الأديان المعترف بها في الجزيرة العربية، فانتشر الإسلام خلال فترة السلام، حتى أن الذين اعتنقوا الدين الحنيف في تلك الفترة فاق بكثير عدد الذين اعتنقوه قبل ذلك.

ملوك العالم

فكر النبي بعد معاهدة السلام في نشر الإسلام عالمياً، ولعل قريش وغيرها من القبائل العربية فوجئت بأنباء الصحراء وهي تتحدث عن فرسان مسلمين يحملون رسائل النبي ﷺ إلى ملوك العالم.

كان النبي ﷺ قد اتخذ خاتماً فضياً منقوشاً عليه «محمد رسول الله» لتوقيع رسائله.

وانطلقت خيول الإسلام تحمل دعوة النبي لدخول الدين الجديد.
فقد انطلق دحية الكلبي يحمل رسالة النبي إلى امبراطور الروم.
بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى

أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك اثم الاريسين^(١) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

وتتابعت رسائل النبي، رسالة إلى كسرى ملك الفرس، ورسالة إلى النجاشي ملك الحبشة، تضمنت أيضاً السماح لجعفر بن أبي طالب والمهاجرين بالعودة، ورسالة إلى المقوقس ملك مصر، ورسالة الي

١- رعايا الامبراطورية.

٢- آل عمران: ٦٤

الحارث الغساني أمير دمشق؛ من قبل هرقل، ورسالة إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين، ورسالة إلى باذان حاكم اليمن. وقد اعتنق الاخيران الإسلام.

حصون السامري

تخللت فترة السلام التي أعقبت «صلح الحديبية» بعض العمليات العسكرية في طليعتها تساقط حصون خيبر وقلاعها في قبضة الجيش الإسلامي الزاحف.

وقد تفجر الوضع بعد ان تناقلت الأنباء عن تحركات يهودية في الظلام ولقاءات مشبوهة مع قبائل غطفان لغزو المدينة.

لقد كان الرسول ﷺ يدرك أبعاد الخطر اليهودي ولهذا كان فرسان الدوريات يجوبون الصحراء بين مضارب غطفان وحصون خيبر لرصد التحركات المشبوهة، وعندما تأكد النبي من المؤامرة عبأ جيشه زاحفاً باتجاه حصون الغدر اليهودية.

وقد تحركت القوات الإسلامية بأقصى سرعتها متجهة إلى عرض الصحراء واحتلال الطريق بين مضارب غطفان وحصون خيبر ثم انكفأت باتجاه خيبر لقطع الطريق على أي تنسيق محتمل أو وصول نجدات من غطفان إلى خيبر.

بلغ تعداد الجيش الإسلامي ألفاً وأربعمائة مقاتل يشكل سلاح الفرسان مئتي فارس وكانت راية العقاب تخفق فوق هامة النبي ﷺ.

بدت الحصون ذلك الفجر ككائنات أسطورية مخيفة تجثم فوق الأرض والصحراء برمالها المتموجة تترقب معركة وشيكة .. معركة سيكون لها شأن وأي شأن.

اجتاح المسلمون المناطق المشجرة ما بين الحصون وبدت الجدران الصخرية لـ«النطاة» و«الصعب» و«ناعم» و«الشق» و«القموص» و«سلالم»^(١) ثابتة في وجه الهجمات الإسلامية، ودارت معارك ضارية في الشوارع.

سقط خمسون جريحاً من المسلمين واستشهد محمد بن سلمة وأخفقت الحملات الإسلامية في احتلال أي من الحصون وكان اليهود يسخرون من الجيش الإسلامي متباهين بشجاعة ابطالهم.

بان الغضب على وجه النبي فهتف:

لأعطينَ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

نشر الظلام ستائره، واشتعلت مواقد في قلب الليل .. والنساء تداعب سعفات النخيل، ودارت همسات حالمة؛ ترى من سيحظى

١- أسماء الحصون والقلاع اليهودية.

بهذا المجد غداً؟

طلع الفجر وتنفس الصباح واستيقظت الكائنات لتبدأ يوماً جديداً.

تحلّق المسلمون حول النبي ﷺ يتطلعون إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، ولم يطل الانتظار إذ هتف النبي:

- أين علي؟
- وتقدّم فتى في الثلاثين أو يزيد.. امسك براية العقاب وراح يصغي إلى صوت سماوي.
- أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن لم يستجيبوا فقاتلهم.. انطلق فتح الله عليك.
- هرول علي لبيعث الحماس في جنوده، فبدا بحلّته الأرجوانية جمرة متألقة. وعندما صار قريباً من «القموص» خلع درعه ليكون أكثر قدرة في الحركة، وأمر جنوده أن يفعلوا ذلك.
- رفض اليهود ساخرين دعوة الإسلام ونداء السلام، وكان الخيار الوحيد هو إحراق العجل^(١).

كان منظر علي بلا درع قد حرّك شهوة الغدر والانتقام في نفوسهم..

١- إشارة إلى عجل السامري.

فراح أبطالهم يخرجون مدججين بالسلاح وكانوا يتساقطون الواحد تلو الآخر عند قدميه.

الذين كانوا يراقبون الصراع أدركوا أن هناك سرّاً في انتصار علي ..
رأوا بأن أعينهم كيف يُهزم الحديد أمام قلب المؤمن.

وهبط مرحب درجات الحصن كتلة هائلة من الحديد والبأس
والغدر، في قبضته حربة ذات ثلاثة رؤوس كأفعى أسطورية.

تقدم مرحب ينقل خطاه المثقلة. الزرد والحديد، ليس هناك في كل
جسده الفارع ثغرة يمكن للسيف أن ينفذ فيها.

وتوقع المسلمون واليهود .. توقعوا جميعاً نهاية علي. تقدمت كتلة
الحديد .. وانطلقت الحربة برؤوسها الثلاثة وكادت أن تخترق صدر
علي وتمزق القلب المؤمن.

ارتدّ عليّ إلى الوراء ثم قفز في الهواء ليهوي بضربة هائلة أودعها
غضب السماء .. وتحطم الحديد .. مرّت لحظة صمت قبل أن ترتطم
كتلة هائلة بالأرض محدثة دويّاً تنخلع له القلوب المذعورة .. وقد قتل
داود جالوت .. واندفع علي بعد أن حطم الغرور اليهودي إلى باب
الحصن لينتزعه وسط دهشة الجميع، وأصبح جسراً فوق الخندق
يتدفق عبره المهاجمون .. وسرعان ما سقط «القموص» و«الوطيح»

و«السلام».. وسقطت حصون خيبر كلها.

وفي غمرة الفرح وصل جعفر على رأس عشرات المهاجرين قادمين من الحبشة فتضاعفت فرحة النبي فقال والبسمة تشرق في وجهه:

ما أدري بأيهما أشدّ سروراً بقدم جعفر أم بفتح خيبر!

ومع سقوط خيبر تقوض النفوذ السياسي والعسكري وحتى الاقتصادي لليهود في شبه الجزيرة العربية.

انهيار الوثنية

أعقب سقوط خيبر استسلام اليهود في فدك، ثم وقع حادث له دويّه في شبه الجزيرة العربية، فقد قرر النبي ﷺ إرسال حملة تأديبية إلى الممالك العربية الموالية للرومان، إثر مصرع مبعوثه إلى هرقل على يد شرحبيل بن عمرو الغساني.

بلغ عدد جنود الحملة ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة، فإن استشهد فجعفر بن أبي طالب، فإن استشهد فعبد الله بن رواحة.

وفي جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة تقدم الجيش الإسلامي يطوي المسافات باتجاه الشمال تتألق في نفوس الجنود وصية الرسول الخالدة:

- أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً:

اغزوا باسم الله

فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام.

وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً.

ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناءً.

ومهما كانت بواعث الزحف الإسلامي فانه يجسد بشكل واضح عالمية الإسلام؛ خاصة وقد سبق هذا التحرك العسكري رسائل هامة إلى ملوك العالم آنذاك.

وفي «مؤتة» من أرض البلقاء في تخوم الشام تقابل الجيشان، لقد تعددت الروايات حول ضخامة الجيش الروماني فأشار بعضها إلى أنه ناهز المئتي ألف يشكل الرومان نصفه، فيما يشكل التجمع العربي النصف الآخر^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن تيودور^(٢) كان القائد العام للجيش الروماني.

لم تفكر القيادة الإسلامية بالتراجع أمام التفوق الساحق للعدو

١- أسهمت قبائل لخم، جذام، بلقين وبلي في القتال الى جانب الرومان.

٢- شقيق الامبراطور هرقل.

وقررت خوض المعركة مادامت الشهادة تمثل إلى جانب النصر هدفاً آخر وهي إحدى الحسنيين.

وقد ذهل الرومان أمام استبسال المسلمين واعتدادهم بأنفسهم واندفاعهم إلى الموت، وتساقط قادة الحملة شهداء في أرض المعركة فتولّى القيادة العامة خالد بن الوليد الذي اعتنق الإسلام حديثاً، وقرر الانسحاب وانقاذ الجيش الإسلامي من الإبادة.

انتهز القائد الجديد حلول الظلام وقام بتنظيم عملية انسحاب سريعة عبر الصحراء.

وفي فجر اليوم التالي فوجئ الرومان بالانسحاب وتطلعوا متهيّبين إلى الصحراء وقرر تيودور العودة وعدم المغامرة باختراق الصحراء.

العدوان على السلام

في شهر رمضان خرقت قريش وحلفاؤها من بني بكر اتفاق السلام، فقد قامت قبيلة بني بكر بالإغارة على مضارب خزاعة ليلاً وأعملت فيها السيف. وبالرغم من لجوء الأخيرة إلى بيت الله الحرام فقد استمر المعتدون بمطاردتها، ومحاولة استئصالها؛ ولا ننسى أن نشير أن هذه الغارة تمت بتحريض من قريش التي تجاوزت التحريض إلى الدعم بالمال والسلاح.

وفي غمرة الأحداث انطلق عمرو بن سالم صوب المدينة مطلقاً
صرخة استغاثة ومذكراً بالتحالف بل وأعلن اعتناق أفراد قبيلته
للإسلام.

وقد تأثر النبي ﷺ بشدة وقال:

- والذي نفسي بيده لأمنعنهم مما أ منع منه نفسي وأهل بيتي.
أمر النبي ﷺ الوفد الخزاعي اتخاذ جانب السرية في العودة وعدم
إبلاغ أحد بسفر الوفد إلى المدينة.

ويبدو أن قريش قد شعرت بالندم جزاء ما حصل، وأنها لن تحصد
من عملها سوى المرارة، فتوجه أبو سفيان بنفسه رغم كل المخاطر إلى
المدينة في محاولة لتأكيد صلح الحديبية.

وقد أخفق أبو سفيان في مهمته وعاد إلى مكة مذعوراً، خاصة وأنه
لم يلق ترحيباً حتى من لدن ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، ولعله
أصيب بالدهشة بعد أن طوت فراش النبي عندما أراد الجلوس عليه
قائلة:

- إنه فراش رسول الله وأنت مشرك نجس.

وهكذا ظلت مكة تعيش هاجس القصاص الإسلامي القادم من
الشمال.

وفي المدينة المنورة بدأت الاستعدادات في تعبئة جيش كبير مؤلف من عشرة آلاف مقاتل، وبالرغم من ضخامة الجيش الإسلامي فإن الرسول ﷺ أكد على جانب السرية في التحرك بغية مفاجأة قريش وإرغامها على فتح أبواب مكة دون قتال.

وخلال هذه الفترة برز في مكة تياران معتدل ومتطرف وكانت هند زوجة أبي سفيان تتزعم التيار الأخير، فيما كان أبو سفيان نفسه يمثل التيار المعتدل من خلال قناعته بعجز مكة عن مواجهة القوة المتنامية للإسلام، سيما وأن رحلته الفاشلة إلى المدينة قد كرّست في أعماقه شعوراً مريراً بالعجز.

وبالرغم من اتخاذ جانب السرية في تحديد أهداف الحملة فقد تسرّبت الأنباء إلى حاطب بن أبي بلتعة فسوّلت له نفسه باطلاع قريش، فسطر رسالة عاجلة واستأجر امرأة لهذه المهمة.

هبط الوحي يخبر النبي بما فعل الصحابي، فبعث النبي ﷺ علياً والزبير على وجه السرعة لانتزاع الرسالة منها، وفي مكان يدعى «الحليفة» قريباً من المدينة لحق الفارسان بها.

أنكرت المرأة الرسالة جملة وتفصيلاً، وفتش الزبير الرجل بدقة فلم يعثر على شيء، وتراجع الزبير أمام إنكارها وبكائها وهي تذرف دموع التماسيح فقال لعلي:

- ليس معها شيء ارجع بنا إلى رسول الله نخبره ببراءتها.
- غير أن علياً عليه السلام الذي لا يساوره الشك فيما أخبره رسول الله، اختلط سيفه وهدد المرأة إذا لم تسلم الرسالة.
- وهنا انهارت المرأة واعترفت بحقيقة الأمر وسلمت الرسالة بعد أن استخرجتها من جداول شعرها.
- وهكذا أمكن للنبي ﷺ الزحف باتجاه الجنوب في سرية تامة حتى إذا وصل المرتفعات المطلّة على مكة بقوّاته، فوجئت قريش بتوهج النيران فوق المرتفعات وكان منظراً مهيباً، حدا بأبي سفيان وزعماء آخرين إلى التوجه نحوها لمعرفة ما وراءها.
- وقال أبو سفيان مبهوراً:
- ما رأيت كالليلة نيراناً ولا عسكرياً.
- فردّ بديل بن ورقاء:
- هذه نيران خزاعة خمشتها الحرب.
- قال أبو سفيان:
- خزاعة ألأم من ذلك وأذلّ.
- وفي غمرة الظلام وحينما كان العباس بن عبد المطلب عم

النبي ﷺ يقوم بمهمة وساطة لاستحصال الأمان لبعض أهل مكة،
سمع الحوار فهتف بأبي سفيان:

- يا أبا حنظلة.

- أبو الفضل؟!

- نعم.

وملأت الغبطة قلب أبي سفيان وهو يرى خشبة النجاة.

- لبيك يا أبا الفضل ما وراءك؟

- هذا رسول الله قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به .. عشرة آلاف من
المسلمين.

فقال أبو سفيان منهاراً:

- فما تأمرني به؟

- تأتي معي فأخذ لك أماناً من رسول الله، وانطلق أبو سفيان مع
العباس إلى النبي ﷺ الذي أجّل اللقاء إلى غد.

وفي الصباح كانت مقاومة أبي سفيان قد بلغت درجة الصفر وأعلن
استسلامه باعتناق الإسلام.

وأراد النبي ﷺ أن يحطم كل الأحلام الوثنية التافهة، فأمر العباس

أن يأخذ أبا سفيان فوق المرتفعات ليرى بنفسه قدرة الجيش الإسلامي وتنامي قوّته.

وكانت الكتائب الإسلامية تمرّ أمام ناظريه وكان أبو سفيان مبهوراً يتضاءل حتى غدا كذبابة، وعندما مرّت الكتيبة الخضراء سأل أبو سفيان:

- من هؤلاء؟!

فقال العباس:

- هذا رسول الله في المهاجرين والانصار.

وهنا أعلن أبو سفيان استسلامه:

- ما لأحد بهؤلاء طاقة.

وأردف بشيء من الحقد والضييق:

- لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً.

فالتفت العباس إليه وقال بانفعال:

- إنها النبوة يا أبا سفيان.

فردّ أبو سفيان مهزوماً.

- نعم.

وجاء الفتح

قال العباس للنبي ﷺ:

- يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر في قومه.

فقال النبي:

- من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

ومن دخل المسجد فهو آمن.

ومن أغلق بابه عليه فهو آمن.

وانطلق أبو سفيان يحذر مكة من مغبة العناد، وأن تفتح أبوابها للفتاحين.

وفي المسجد الحرام وبينما كان الزعماء يتداولون الرأي حول الموقف، دخل أبو سفيان وهتف:

- هذه محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

اشتعل الحقد في نفس هند وهجمت على زوجها تنشب أظفارها في وجهه وصاحت:

- اقتتلوا الحميت الدسم الأحمس^(١).
وتهكم بعضهم:
- وما تعني عنا دارك؟!
فرد أبو سفيان.
- ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.
وعاشت مكة لحظات مصيرية، وأقفرت الشوارع والأزقة من المارة والعابرين، وبدت المدينة مهجورة فيما كان المسجد الحرام يغص بالناس، والأصنام تحدق ببلاهة.
- كان منظر قوات الإسلام مهيباً، فالنبي فوق ناقته مطرق الرأس تواضعاً، ولم تبد على وجهه المضيء آية إشارة على التشفي والانتقام، ولعلّ المشركين فوجئوا بصورة النبي وهو يدخل مكة فاتحاً بعد ثمانية أعوام، منذ أن فرّ منها شريداً.
- دخلت القوات الإسلامية من بواباتها الأربع ولم تواجه مقاومة تذكر، باستثناء الرتل الذي كان يقوده خالد بن الوليد حيث تجمع المتطرفون من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل يساندتهم بنو بكر في أحد المنعطفات وأمطروا الرتل الإسلامي بوابل من السهام ولكنهم سرعان ما

١- السمين الذي يشبه وعاء السمن.

تشتوا لدى أول هجوم، وهكذا تم فتح مكة.

وكان الجميع يراقبون ما يصنع النبي بعد كل هذه المعاناة وبعد كل هذا الصراع المرير والدماء والتعذيب والاضطهاد الذي واجهه منذ أن التقت السماء بالأرض في جبل حراء.

تقدم النبي بتواضعه وأدبه العظيم إلى الحجر الأسود فاستلمه وقبله، وطاف بالبيت العتيق، وكانت الأصنام^(١) ما تزال تحدّق ببلاهة. ومَرَّ النبي يهشم الأصنام بعصاه، وراحت الأوثان العربية تتهاوى أنقاضاً كما لو أن زلزالاً قد ضربها بشدة، وعاش المسلمون لحظات سعيدة وهم يرون حفيد إبراهيم يحطم الأصنام ويعلن أن الله واحد لا شريك له.

وتسلّم النبي مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة وانفتح الباب، ودخل النبي جوف الكعبة فرآها مشحونة بالصور وكانت هناك صورتان إحداهما لإبراهيم والأخرى لإسماعيل وهما يستقسمان بالأزلام^(٢).

واستنكر النبي قائلاً:

- قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام! ما شأن إبراهيم والأزلام!

١- كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً.

٢- إحدى العادات الجاهلية لمعرفة ما ينبغي فعله إذا حار المرء.

وتلا النبي بخشوع:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

وأزال النبي تلك الصورة الوثنية وطهر الكعبة منها.

وبدت الكعبة متألفة طاهرة، فلا أوثان ولا أصنام وأضحت رمزاً للتوحيد الخالص.

ووقف النبي على باب الكعبة تحديق به الجموع وقلوب الذين كفروا تدق بعنف.

هتف النبي:

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، يا معشر قريش إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية.

الناس من آدم وآدم من تراب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢).

ومرّت لحظة صمت وهتف النبي بالجموع مرّة أخرى.

١- آل عمران: ٦٧

٢- الحجرات: ١٣

- يا معشر قریش! ما ترون أني فاعل بكم؟
وجاء الجواب:
- خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم.
وأصغى التاريخ إلى موقف نبيل لم يشهده لدى أي من الفاتحين.
- اذهبوا فأنتم الطلقاء.
- وأعاد مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وقال:
هذه مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء.
- وعاشت مكة أسعد لحظاتها، فمن المصير الغامض المجهول،
ومن أنهار الدم والخرائب والمناحات، ومن القصاص والانتقام، إلى
العفو العام، إلى نور الإسلام.
- ودارت في الفضاء تمتات الدعاء، فالقلوب والألسن تلهج:
أشهد ان لا إله إلا الله.
- أشهد ان محمداً رسول الله.
- لم ينس النبي ﷺ أن يستدعي صاحبه عمر بن الخطاب الذي
اهتزّ إيمانه في الحديبية، فقال له:
- هذا الذي كنت وعدتكم به.

وأطرق عمر خجلاً من موقفه قبل عامين.

وعَمَّت الفرحة وانتشرت في الفضاء عطور النصر، واستعاد النبي تفاصيل رحلته الطويلة، منذ أن كان وحيداً شريداً حتى أنزل الله نصره، فهوى إلى الأرض ساجداً لله الخالق البارئ المصور إله إبراهيم وإسماعيل، رب العالمين.

وبتحرير مكة من نير المشركين، انهارت الوثنية، ودخلت القبائل العربية في دين الله افواجاً.

وهبط جبريل يحمل سورة النصر:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (١).

ويوم حنين

أحدث فتح مكة دويّاً كبيراً في الجزيرة العربية بعد أن شهدت القبائل انهيار الأوثان وتحول الأصنام إلى أنقاض عند اقدام الموحّدين.

وقد أثار الانتصار الإسلامي الساحق مخاوف بعض القبائل العربية، وفي طليعتها هوازن وثقيف، وتمكن مالك بن عوف وكان شاباً مندفعاً أن

يقنع قبيلة هوازن وأن يكسب مواقف القبائل الأخرى في مقاومة الإسلام عسكرياً في أضخم تجمع قبلي تشهده الجزيرة العربية حيث بلغ عدد المقاتلين ثلاثين ألفاً.

وكانت خطة القائد الشاب تقضي باحتلال مرتفعات وادي حنين، والمضيق المؤدي إلى عمق الوادي لوضع المسلمين بين فكّي كَمَاشة. وتدفقت القبائل صوب الوادي واستكملت تمركزها في رؤوس التلال وحنايا المرتفعات وكان الشاعر المعروف دريد بن الصّمة ضمن الحشود^(١) وكان قد بلغ به الكبر عتياً وفقد بصره، فأثارته ضجة الأصوات وهي تملأ الوادي من حوله فتساءل:

- مالي أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وثغاء الشاة وبكاء الصغير.
فأجاب زعيم هوازن بحماس الشباب.
- سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم.
وتساءل دريد:

- ولم؟!

١- من قبيلة هوازن، كان فارساً شجاعاً ويبدو أن قبيلة هوازن كانت ترجع إليه في المهمّات من الأمور. لقي مصرعه في المعركة، وكان قبلها قد خطب الخنساء الشاعرة حيث تغزّل بها ثم هجاها بعد أن رفضته.

- أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

فردّ دريد بعصية:

- إنك رجل أحمق.

وأردف قائلاً.

- والله لا يردّ المنهزم شيء.

ويبدو ان هوازن تعاطفت مع رأي الشاعر، إلى أن اندفع الزعيم الشاب الذي أشهر سيفه مهدداً بالانتحار إذا لم يدع عن الجميع لرأيه؛ وبذلك سيطر على الموقف، حيث اتهم زعيم هوازن الشيخ الأعمى «دريد» بالتخريف، وهكذا دقت طبول الحرب.

وفي مكة تناهت الأخبار إلى النبي ﷺ عن حشود هائلة بقيادة هوازن تتأهب لمواجهة الإسلام، فأرسل على وجه السرعة من يأتيه بالتفاصيل.

وراح رسول الله يعبى قوّاته من جديد حيث بلغ تعدادها بعد الفتح اثني عشر ألف مقاتل^(١) ضمت بعض زعماء الشرك من الذين دخلوا دين أحمد مستسلمين.

ومن أجل استكمال التجهيزات الحربية استعار النبي عتاداً حربياً

١- التحق ألفان من اهل مكة من الذين اعتنقوا الاسلام حديثاً.

كان لدى صفوان بن أمية^(١).

وفي الثالث من شوال تحركت طلائع الجيش الإسلامي تتلوها
الكتائب وكانت «حنين» نقطة الهدف. وربما شعر بعض المسلمين
ولأول مرة بالتفوق بسبب ضخامة الحشود الإسلامية التي قهرت
«قريش» أعز القبائل العربية على الإطلاق، لقد تحول الإسلام إذن إلى
قوة عسكرية هائلة، وعلى هذا فقد ماجت مثل هذه المشاعر في نفوس
بعض المسلمين وهم يتذكرون السنوات الصعبة في مطلع الدعوة
الإسلامية، وهمس أحدهم:

لا نُغلب اليوم من قلة^(٢).

ولعل هذا الشعور قد خامر الكثيرين وجعلهم يفكرون بأن الحرب
مع هوازن وثقيف ستغدو مجرد نزهة عسكرية!
كانت مقدمة الجيش الإسلامي تتألف من قبائل سليم يقودها خالد
ابن الوليد.

وفي فجر الحادي عشر من شوال دخلت طلائع الجيش الإسلامي
وادي حنين، وهو وادٍ عميق الانحدار يشعر المرء وهو يوغل فيه كأنه

١- طلب من النبي ﷺ مدّة شهرين لإعلان موقفه من الاسلام، غير انه أسلم فور انتهاء
معركة حنين.

٢- تنسب بعض الروايات هذه المقولة إلى عتيق بن أبي قحافة.

يتجه إلى الهاوية.

كان كل شيء هادئاً وقد سيطر صمت رهيب، وعندما استكملت معظم القوات الإسلامية دخولها الوادي، فوجئت بالسهم تنبعث من قلب الظلام كالمطر!

لقد اختار مالك بن عوف المكان والزمان المناسبين لمباغطة المسلمين.

سيطر الارتباك على مقدمة الجيش الإسلامي وغادرت مواقعها في انسحاب فوضوي، وقد جرف انسحاب المقدمة الكتائب الرئيسية معه، وتحول إلى هزيمة. وفي تلك اللحظات الحرجة وبينما ظلمة الفجر ما تزال تغمر الوادي، انحاز النبي ﷺ إلى يمين الوادي هاتفاً:

- أنا رسول الله هلموا إليّ؛ أنا محمد بن عبد الله.

غير أن الفوضى كانت ما تزال هي الغالبة على الموقف فلم يلتفت إلى رسول الله أحد سوى نفر يعدّون بالأصابع؛ في طليعتهم ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام، وعمه العباس بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد، وأيمن بن أم أيمن، وعبد الله بن مسعود. وفي تلك اللحظات غادر المشركون مواقعهم لمطاردة المنهزمين يتقدمهم رجل يركب جملًا أحمر ويحمل رمحاً طويلاً ويبيده راية سوداء.

وأمر النبي ﷺ عمه العباس ان يطلق هتافات التجمع، فدوّت في
الوادي صيحات معبّرة:

- يا أصحاب سورة البقرة!.. يا أهل بيعة الشجرة.. إلى أين تفرّون
عن رسول الله؟!

فعلت صيحات الاستغاثة فعلها في النفوس فأبوا إلى رشدهم
وظفّقوا يعودون، ميممين وجوههم شطر مصدر تلك الصيحات
الجهورية.

وعندما تجمع ما يقارب المئة من المقاتلين، مضى رسول الله يقاتل
بهم الذين كفروا؛ إنهم لا إيمان لهم.

ولقد استبسل علي بن أبي طالب في القتال وكان يصد هجمات
المغيّرين الذين أرادوا انتهاز وحدة النبي ﷺ للقضاء على صوت
الإسلام إلى الأبد.

واقترح النبي عن بغلته وراح يباشر القتال وسطّر في ذلك ملحمة
أدهشت المسلمين أنفسهم، فتوهجت في نفوسهم آيات القرآن
وبشارات السماء.

حتى إذا اتضح معالم النهار كانت أرض حنين تهتز لعنف
المعركة، وتناول النبي حفنة من تراب الوادي وقذفها في وجوه

المشركين هاتفاً:

- شأهت الوجوه.

وأظهر بعض الحاقدين على الإسلام كأبي سفيان شماتتهم، وهتف وهو يفرك يديه مغتبطاً والأزلام في كنانته:

- لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.

وتمتم آخر:

- الآن بطل السحر^(١).

وتحرك الحقد في آخر، فعصّ على نواجهه قائلاً:

- اليوم أدرك ثأري من محمد.

- وانتقد صفوان بن أمية هذه المواقف الجبابة بالرغم من بقائه على الشرك حتى تلك اللحظة، وعبر عن امتعاضه من انتصار هوازن قائلاً:

- لأن يملكني رجل من قريش أحب إليّ من أن يملكني رجل من هوازن.

كان الوقت يمضي في صالح المسلمين الذين بدأوا بالتجمع مرة

١- قالها كلدة أخو صفوان بن أمية من أمه.

أخرى بعد أن أفاقوا من هول الصدمة الأولى.

وشياً فشيئاً بدأت كفة القتال تميل إلى جانبهم.

واندفع علي بن أبي طالب نحو حامل الراية في قوّات هوازن فسدّ له ضربة جبارة فصرعته، وكان لسقوط الراية الأثر المدمر في قوّات المشركين فذبّ الوهن إلى قلوبهم، وفقدوا حماسهم في القتال.

وعندما لاحظ النبي القائد ﷺ فتور الهجمات المعادية أطلق صيحته معلناً بدء الهجوم المعاكس:

- الآن حمي الوطيس .. شدوا عليهم.

واندفعت القوّات الإسلامية - بعد أن أمسكت بزمام المبادرة - تمزق فلول المشركين الذين فضّلوا الفرار والنجاة بأي ثمن.

افترق المنهزمون إلى محورين؛ محور فرّ باتجاه «الطائف» ويتألف من معظم قوّات ثقيف، فيما اختارت هوازن وبعض القبائل الأخرى «أوطاس» و«نخلة» ملجأً لها.

وتحققت مقولة دريد الشاعر الذي قال قبل احتدام المعركة، «لا يرد المنهزم شيء» وهكذا ترك المشركون نساءهم وأطفالهم وأموالهم تحت رحمة الجيش الإسلامي.

وقد بلغت غنائم الجيش المنتصر أرقاماً مذهشة فكانت (٦٠٠٠) من

السبي و٢٤٠٠٠ شاة و٤٠٠٠ أوقية من الفضة.

وقد أوقف النبي عملية توزيع الغنائم بعد جمعها في وادي الجعرانة،
ريثما يتم تصفية الحساب مع العدو المتحصّن وراء أسوار الطائف.

وكانت أسوار الطائف من المتانة بحيث صمدت في وجه الحصار
كما أن المواد الغذائية كانت متوفرة لدى ثقيف بشكل يجعلها تواجه
أمد الحصار الطويل.

حاول الجيش الإسلامي تضيق الحصار وتقدمت الكتائب باتجاه
الأسوار، ولكن مقاتلي ثقيف صَبّوا عليهم وإبلاً من السهام، فأمر النبي
بالابتعاد عن مرمى السهام.

واستخدم المسلمون لأول مرة أسلحة جديدة هي «المجانيق» التي
تشبه المدفعية إلى حدّ ما كما استخدموا «الدبابات» أيضاً وهي آليات
من الخشب المصفحة بالجلود يدخل تحتها الجنود ويتقدمون
باتجاه الأسوار ونقبها^(١)، وقد أخفق كلا السلاحين في تحقيق تقدم ما؛
فقد صمدت الأسوار أمام قصف المجانيق، كما عالج جنود ثقيف
الدبابات بإلقاء كتل المعادن بعد صهرها فاحترقت، وانسحب الجنود
المحتمون تحتها.

١- كان صاحب الفكرة سلمان الفارسي (رض) وهو الذي أشار بحفر الخندق الذي
أنقذ المدينة المنورة من خطر الفناء في العام الخامس الهجري.

ورأى النبي ﷺ بنظره الثاقب إنهاء الحصار وترك مسألة الطائف للزمن، فأمر بفك الحصار والعودة إلى «الجعرانة» ومكة ثم المدينة.

في الوادي

وفيما كان النبي مشغولاً بتوزيع الغنائم، حضر وفد من هوازن يطلب من رسول الله العفو، مذكرين بطفولته يوم كان في مضارب بني سعد لدى مرضعته حليلة (١) قائلين:

- إن في الأسر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولأنت خير المكفولين.

فتأثر النبي ﷺ وتدفق نبع إنساني فياض في قلبه وقال:

- أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟

- بل نساؤنا وأبناؤنا.

- ما كان لمحمد ولبنني عبد المطلب فهو لكم.

ونصح النبي ﷺ الوفد بالانتظار إلى صلاة الظهر والتقدم بشكل رسمي وأن يقولوا: أنا نستشفع رسول الله إلى المسلمين والمسلمين إلى رسول الله في ابنائنا ونسائنا.

١- تنتمي حليلة السعدية إلى قبيلة بني سعد بن بكر إحدى قبائل هوازن.

وانتظر الوفد موعد الصلاة؛ وكانت فرصة أخلاقية يمكن استثمارها في التخفيف من حدة الميل المادية، وهتف الوفد بعبارة النبي فأجاب ﷺ:

- ما كان لي ولبني عبد المطب فهو لكم.
- وهتف المهاجرون:
- ما كان لنا فهو لرسول الله.
- وصاح الأنصار:
- ما كان لنا فهو لرسول الله.
- ولكن الاقرع بن حابس ومعه بنو تميم، وعيينه بن حصن ومعه بنو فزارة وعباس بن مرداس زعيم بني سليم اصرّوا على مواقفهم في الاحتفاظ بغنائمهم البشرية؛ وفي الأثناء هتف بنو سليم قائلين:
- بلى ما كان لنا فهو لرسول الله.
- وعندها أمر النبي بإطلاق سراح جميع الأسرى من هوازن على أن يعوض المتمسكين بموقفهم عن كل إنسان ستة من الإبل، وراح النبي يصدق على الذين أسلموا حديثاً من أهل مكة بالغنائم استمالة لقلوبهم وقضاء على البقية الباقية من الاحقاد القديمة.

فوهب أبا سفيان عدوه اللدود أربعين أوقية من الفضة ومئة من الإبل
فهتف وقد هزته الأطماع:

- ابني يزيد! يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ:

- أعطوه أربعين أوقية ومئة من الإبل.

فهتف أبو سفيان مرة أخرى:

- ابني معاوية:

- أعطوه أربعين أوقية ومئة من الإبل.

لقاء مع الأنصار

وقد تركت هذه الهبات الضخمة^(١) في نفوس الأنصار آثاراً سلبية
وعصفت بهم الهواجس من أن يفكر النبي بالعودة إلى مكة وإلى قومه
الذين شرّده بالأمس، فينسى مواقف الانصار وتضحياتهم في الأيام
الصعبة.

وتصاعدت همسات العتب بين الأنصار حتى وصلت إلى مسامع

١- يقول صفوان بن أمية أحد المؤلفة قلوبهم: «أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وأنه
لأبغض الناس إليّ فما زال يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ»

النبي فأمر سعد بن عبادَةَ أن يجمع الأنصار في مكان خاص.

وجاء سعد بعد حين قائلاً:

- قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.

وهنا وقف النبي ﷺ يعلن مواقفه الخالدة ويوضح لهم عقيدته في العطاء:

- يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة^(١) وجدتموها عليّ

في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم؟

ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟

وانطلقت الأصوات تعلن:

- بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنّ والفضل.

غير أن النبي لم يكن لينسى مواقفهم وتضحياتهم فقال:

- أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتهم ولصدقتهم؛ أتيتنا مُكذِّباً فصدقناك ومخذولاً، فنصرناك، وطريداً فأويناك وعائلاً فأسكنناك؛

١- العتب الممزوج بالغضب.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة^(١) من الدنيا تألفت
بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى اسلامكم؟
ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا
برسول الله إلى رحالكم؟
وأردف النبي معلناً عواطفه العميقة:

- فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار،
ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب
الأنصار.

ثم رفع يديه إلى السماء الصافية هاتفاً:

- اللهم ارحم الأنصار .. وأبناء الأنصار .. وأبناء أبناء الأنصار.

وتأثر الأنصار لمنظر النبي وانفجروا بالبكاء ..

البكاء الذي يغسل القلوب فتعود طاهرة نقية كما تغتسل الأشياء
تحت رشاش المطر.

ولعلّ أفضل ما نختم به هذه الصفحات المثيرة من التاريخ كلمات
القرآن وهي تصوّر بأسلوب خلّاب تلك اللحظات العاصفة:

١- القليل المحتقر.

- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾﴾^(١).

وقبل أن ينطوي العام

وقبل ان ينطوي العام الثامن للهجرة، وقعت بعض الحوادث منها ميلاد إبراهيم ابن النبي ﷺ من زوجته مارية وتعيين عتاب بن أسيد والياً على مكة بأمر النبي رغم كونه شاباً لم يبلغ العشرين بعد؛ الأمر الذي أثار امتعاض سادة قريش وزعمائها فأرسلوا إليه قائلين؛ أليس الأكبر هو الأفضل؟

فردّ النبي ﷺ بحزم محطماً تقاليد الجاهلية: بل الأفضل هو الأكبر. وعلى صعيد الأحداث العالمية، تم تنصيب أردشير ملكاً على الإمبراطورية الفارسية وهو ما يزال في السابعة من عمره خلفاً لأبيه.

كما نصح بجير اخاه الشاعر كعب بن زهير الذي سبق وأن هجا النبي ﷺ بالقدوم عليه وطلب العفو وانهاء هواجس التشرد.

وقد استجاب الشاعر فشَدَّ رحاله صوب المدينة ونزل ضيفاً عند أحد أصدقائه طالباً منه التوسط لدى رسول الله ﷺ.

وقد قام كعب بمحاولة ذكية إذ غدا في اليوم التالي على المسجد وسلم على النبي وصافحه قائلاً:

- إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟

فأجاب النبي:

- نعم.

وفي هذه اللحظة أماط كعب اللثام عن هويته وقال:

- أنا كعب بن زهير يا رسول الله.

ثم أندفع ينشده رائعته في مدح النبي ﷺ والتي يقول فيها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلاغن غضيض الطرف مكحول

إلى أن يقول:

نبئت أن رسول الله اوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيط وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الاقاويل
واستمر كعب يردد مدائح على النبي وثناءه على المهاجرين إلى
أن أتمها.

فقال النبي ﷺ تطيباً لخواطر الأنصار:
- هلاً ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل.

فأنشأ كعب على الفور يمجد تضحيات الأوس والخزرج:
من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من ساحل الأنصار
ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار
الناظرين باعين محمرة كالجمر غير كليله الأبصار
والبائعين نفوسهم للموت يوم تعانق وكرار
وخلع النبي بردته وألبسها إياه تكريماً له.

تبوك

وأطل العام التاسع من الهجرة والذي يصادف سنة (٦٣٠-٦٣١)م وقد
شهد هذا العام انتصارات كبرى للإسلام، إذ أعلنت القبائل العربية
ولاءها للدين الجديد، فلقد أصبح الإسلام حقيقة واقعة، توجب على

الجميع الإقرار بها.

ولعل أكبر باعث على هذا الاعتراف الرسمي العام هو ما رافق غزوة تبوك من أحداث وحوادث.

فقد وصلت أنباء إلى المدينة تفيد بحشود ضخمة يقوم بها هرقل إمبراطور الروم، وتردد أصدااء التحركات العسكرية في الجزيرة العربية.

لقد هزم الإسلام الوثنية في معارك حاسمة كما قصم ظهر اليهودية في هذه البقعة من العالم، وتساءل الناس عن مدى قوة الإسلام في مواجهة الرومان والقبائل العربية المتنصرة؛ وهكذا توجب على المسلمين الاستجابة لهذا التحدي الجديد.

ولأول مرة استخدم الرسول ﷺ أسلوب الحرب الشاملة فأعلنت في المناطق الإسلامية حالة النفير العام بالتحاق كل القادرين على حمل السلاح.

وبالرغم من قسوة الظروف آنذاك فالفصل كان حاراً والعام عام جذب إضافة إلى عجز مالي واضح في إعداد التجهيزات الحربية اللازمة، ومع كل هذا فقد تمكن النبي ﷺ من تعبئة ثلاثين ألف مقاتل ولم يتخلف سوى ثلاثة نفر؛ كما استثنى النبي ﷺ المنافقين لعلمه بنواياهم.

ويظهر من خلال إصرار النبي على قبول التحدي خطورة الموقف على حدود شبه الجزيرة الشمالية؛ ذلك أن هرقل كان يخطط لضربة جبارة بعد أن أقلقه ما يجري في الجزيرة العربية وحدود بلاده الجنوبية وخشية من انقلاب القبائل العربية المنتصرة، ولذا قام بخطوات يفهم من ورائها نيته في القضاء على الدين الإسلامي قبل أن يستفحل أمره ويتحول إلى قوة عالمية.

فحشد قوات هائلة في منطقة تبوك ثم قام بإرسال قوات صغيرة إلى منطقة «البلقاء» في محاولة لتحويل الأنظار عن تبوك، كما قام أيضاً بتوزيع رواتب عام كامل على جنوده، كما أغدق الأموال على القبائل العربية النصرانية لحشدها ضد الإسلام ومساعدة جيوش الامبراطورية. وفي ظروف بالغة القسوة تحرّك الجيش الإسلامي الجرار صوب تبوك وتجمعت النسوة الأطفال والشيخوخ فوق أسطح المنازل، والعيون تومض أملاً، والقلوب تموج بالدعاء لله أن ينصر رسوله والذين آمنوا.

ولأول مرة في تاريخ الإسلام ومعاركه الدامية لم يشارك علي بن أبي طالب في التوجه في هذه الغزوة وقد كان ذلك بأمر النبي ﷺ بعد أن ساورته الشكوك في عمل تخريبي قد يقوم به المنافقون.

وقد حاول علي بن أبي طالب الالتحاق بعد أن غادر الجيش الإسلامي المدينة، ولكن النبي ﷺ أصرّ على بقاءه، فالمدينة يلزمها

رجل قويّ، يملأ فراغ القائد في الظروف الحرجة، وفي تلك اللحظات طلب النبي من ابن عمه العودة إلى المدينة قائلاً له:

- ألا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

وعاد علي إلى المدينة وعيناه تتألقان فرحاً بهذا المجد.

كان على الجيش الإسلامي أن يقطع صحراءً مترامية تمتد إلى ستمئة كيلومتر وفي قيظ شديد يجعل من الماء أنفُس الأشياء على الإطلاق.

لقد وضعت تبوك المجتمع الإسلامي في أكبر امتحان، وظهرت معادن الرجال كما هي، وفضحت المنافقين بشكل سافر حتى باتوا يحترقون تحت أشعة الحقائق المرة.

لقد سادت المجتمع الإسلامي حركة من التضامن المدهشة خاصة في دعم المجهود الحربي إذ قدمت النسوة حليهن الذهبية لدعم الجيش الإسلامي، فيما راح المنافقون يطلقون الشائعات، ويهولون من خطر الرومان، وفي أحسن الأحوال كانوا يطلبون الانتظار لحين جني الثمار خاصة وقد أطل موسم القطاف.

المجد للإسلام

وصل الجيش الإسلامي منطقة تبوك وكانت المفاجأة الكبرى انها كانت مقفرة، لقد فضل هرقل إمبراطور الرومان الانسحاب، مؤثراً السلامة ومتهيباً ضخامة الجيش الإسلامي وروحه المعنوية ولياقته العالية وقدرته على قطع الصحاري الشاسعة في فتره وجيزة نسبياً.

وأمر النبي ﷺ بالمرابطة في تبوك مدة عشرين يوماً متحدياً أكبر إمبراطورية في العالم آنذاك، وبذلك تم سحق الغرور الروماني وزعزعة ما تبقي من هيبتهم في النفوس.

وخلال تلك الفترة كانت السرايا الإسلامية تجوب المناطق والتخوم لبسط النفوذ الإسلامي، وإرغام بعض الممالك الصغيرة على الاعتراف بالدولة الإسلامية ومجد الإسلام.

فقد تم إبرام معاهدة سلام مع «أيلة» حيث حضر زعيمها يوحنا بنفسه لتوقيع المعاهدة التي جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤيا وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر...

كما أبرم النبي ﷺ معاهدة سلام أخرى مع بلدين في البلقاء^(١) هما أذرح والجرباء.

وقد أسفرت عملية تبوك عن نتيجة واحدة كبرى، هي قيام كيان إسلامي وميلاد حضارة إنسانية جديدة في العالم.

الوفود

وفور عودة الجيش الإسلامي الظافر إلى المدينة، تهافتت القبائل العربية إلى الأرض الطيبة في يثرب لتعلن انصواءها تحت لواء الإسلام، وقد بلغ زخم الوفود العربية أن سمي العام التاسع للهجرة بعام الوفود؛ ويبقى وفد نجران الاستثناء الوحيد لوفود القبائل العربية التي أعلنت انتهاء عهد الوثنية، والإيمان بالله الواحد الأحد.

أما وفد نجران فقد جاء يجادل النبي في مسائل فكرية عميقة خاصة في طبيعة المسيح، وقد أوضح النبي حقائق السماء عبر آيات القرآن الحكيم في قوله تعالى:

- ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾^(٢).

١- بالقرب من العاصمة الأردنية عمان.

وعندما استنكر الوفد ذلك محتجاً بعدم وجود أب للمسيح، تلا
النبي ﷺ الآية الكريمة:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩).^(١)

ويبدو أن الوفد لم يكن مستعداً للإذعان للحقائق فهبط الوحي
بالآية الكريمة:

- ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ
لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١).^(٢)

وانسحب الوفد في اللحظة الأخيرة عندما شاهد موكباً عجباً حيث
خرج النبي يمسك بسبطيه الحسين والحسين وخلفه علي عليه السلام صهره
ثم فاطمة الزهراء عليها السلام ابنته وقد بدا الفضاء مشحوناً بالخطر والسماء
على وشك أن تنزل لعنتها على الكاذبين.

وشهد هذا العام انتصارات الإسلام دون حروب، فقد أعلن باذان بن
ساسان اعتناقه لدين الله الحق بالرغم من التهديدات الفارسية، فأمره

١- آل عمران: ٥٩

٢- آل عمران: ٦١.

النبي على مملكته وأضاف إليها مقاطعات يمنية أخرى كانت هي الأخرى قد انضوت تحت لواء الإسلام.

كما وشهد العام فرض الزكاة على الأموال وتعيين الجباة لهذه الضريبة الإسلامية في محاولة لخلق حالة من التوازن في الثروة بين أفراد المجتمع الإسلامي ومكافحة الفقر.

ومن حوادث هذا العام قيام النبي بإحراق مسجد «ضرار» الذي بناه المنافقون للتغطية على اجتماعاتهم وتآمرهم ضد الإسلام^(١).

وأخيراً نزل سورة «براءة» التي أعلنت وبشكل رسمي زوال الوثنية وحددت للمشركين مدة أربعة أشهر لإعلان موقفهم من الإسلام.

وعلى صعيد الأحداث العالمية شهد العام التاسع الهجري مصرع أردشير الملك الصبي لإمبراطورية فارس حيث تم اغتياله في انقلاب عسكري نفذّه القائد «شهربراز»^(٢).

الحج الأكبر

في شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة أعلن النبي ﷺ عزمه

١- توفي عبد الله بن أبي زعيم النفاق فتنفس المسلمون الصعداء.

٢- لقي مصرعه هو الآخر إثر تمرّد الجيش حيث تم تنصيب (بوران) أخت الملك القتيل (أردشير).

على حج بيت الله الحرام، وحملت نسائم الصحراء أنباء الفرح،
فراحت القبائل العربية تنثال إلى المدينة لتنضوي تحت لواء آخر
الأنبياء في التاريخ.

فتدفق عشرات الآلاف تاركين قراهم ومدنهم ومضارب قبائلهم.

وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه تحركت القوافل باتجاه مكة
مهوى الأفئدة، وشهدت الصحراء لأول مرة تجمّعات بشرية ضخمة
بلغت المئة ألف إنسان تطوي المسافات وهي تسير الهوينى صوب
بيت بناه إبراهيم وإسماعيل.

وفي الخامس من ذي الحجة الحرام دخل النبي مكة من باب
السلام، وطاف حول البيت العتيق سبعة أشواط ثم انطلق إلى جبلي
الصفاء والمروة، وهو يتمم بآيات القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ
شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(١)، فسعى بين الجبلين، في حركة تذكّر بأم أسماعيل يوم
كانت تبحث عن قطرة ماء لوليدها أسماعيل.

وصعد جبل الصفا فأطل على الكعبة العظمى وهتف معلناً انتهاء
الوثنية:

- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل

شيءٍ قدير.. لا إله إلا الله انجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

وفي عرفات وقف النبي خطيباً وراح يبين للمسلمين ثقافة الإسلام ومبشراً بعهد السلام:

- أيها الناس اسمعوا مني أبيّن لكم فإنني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا.

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ثم أعلن إلغاء النظرة العنصرية وتكريم الإنسان.

- أيها الناس إن ربّكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى.

ثم راح يؤسس لعهد جديد يسوده السلام والمحبة والوئام.

- من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وان ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به هو ربا عمّي العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.

وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب^(١).

وكان يختم بياناته قائلاً:

- ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

ولم ينس النبي أن يوضح ولو بشكل عام حقيقة كبرى هي الطريق الذي يتعين على المسلمين سلوكه بعد غياب آخر النبوات في التاريخ:

- أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحلّ لأمرئ مال أخيه إلاّ عن طيب نفسه فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض فأني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي أبدأ: كتاب الله وعترتي أهل بيتي.

البلاغ المبين

انطوت أيام الحج الأكبر وأن لقوافل الحجيج أن ترجع إلى ديارها، وراح أهل مكة يرقبون بإعجاب وأمل، الجموع وهي تغادر الأرض المقدسة حيث هبط جبريل يحمل آخر رسالات السماء.

١- ورد في السيران قبيلة هذيل كانت قد اعتدت عليه وقتلته.

وغادر رسول الله ﷺ مكة ونفسه مطمئنة لانتشار الإسلام الذي أضحى في مدّة وجيزة الدين الأول في منطقة واسعة من العالم.

وصلت القوافل منطقة الجحفة حيث مفترق الطرق، كانت الشمس تتوسط السماء وتصبّ لهيبها على رمال الصحراء فتتوقد ذرات الرمال. وفي تلك البقعة الملتهبة من دنيا الله هبط جبريل يحمل البلاغ الاخير:

- «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»^(١).

ويبدو من خلال لهجة الخطاب القرآني التي اتخذت شكل الإنذار أن هناك امراً خطيراً يتوجب على النبي إبلاغه إلى الأمة التي ولدت قبل أعوام.

فوجئت قوافل الحجيج بدعوة النبي بالتوقف في أرض جرداء قاحلة، فلا شجرة يستظل بها المسافر، ولا نبع يرتوى منه الظامئ؛ وطافت علامات تعجب واستفهام عن بواعث الأمر النبوي.

لا يستطيع المرء أن ينفي هواجس الرسول ﷺ حول مصير الرسالة الإسلامية بعد رحيله، خاصة وأنه بات يشعر بأن ساعة الرحيل قد

أزفت ولم يبق له في الدنيا سوى مشوار قصير، وقد آن لآخر الأنبياء ان يغمض عينيه ويغفو بسلام.

تطلّع المسلمون إلى النبي ﷺ وهو يرتقي دوحات أعدّها له بعض أصحابه، ووقف يتطلع إلى عشرات الألوف من الذين آمنوا به واعتنقوا رسالته، وعيناه تحدّقان في الآفاق البعيدة، إلى حيث الغد الذي ينطوي على أسرار وحوادث لا يعلمها إلا الله.

وانسابت كلمات الرسول هادئة مؤثرة:

- كأيّ قد دعيت فأجبت .. واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

وكان علي بن أبي طالب قريباً منه، فاستدعاه وأمسك بيده وقدمه إلى العالم بأسره قائلاً:

- أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجي أمهاتهم؟

فانطلقت الصيحات مؤيدة من هنا وهناك:

- بلى يا رسول الله.

فهتف النبي وقد رفع يد عليّ عالياً كأنه يخاطب التاريخ والأجيال:

- من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من ولاه، وعاد من عاداه. وأدى الرسول رسالته، وهبط جبريل يعلن بشارة السماء:
- ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).
- وتفجّر نبع من الفرخ في تلك الصحراء الملتهبة، واهتزّ حسان بن ثابت طرباً وانطلق يردّد مجدداً تلك اللحظات السماوية:
- يناديهم يوم الغدير نبيهم بخمّ وأسمع بالنبي منادياً
- وقال فمن مولاكم ووليكم فقالوا ولم يبدوا هناك التعامياً
- إلهك مولانا وأنت ولينا ولن تجد منا لك اليوم عاصياً
- فقال له: قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
- فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أنصار صدق موالياً
- هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذي عادى علياً معادياً
- وتمتم النبي وعيناه تتألقان فرحاً:
- لاتزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك، ونهض الصحابة يحبّون علي ويهنئونه قائلين:

- بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة
وكان يوم الثامن عشر من ذي الحجة الحرام يوم عيد وفرح، فقد
كمل الدين وتّمت النعمة.

أشعة الغروب

عاد النبي ﷺ إلى المدينة وقد اطمأنت نفسه العظيمة لانتشار الإسلام
في شبه الجزيرة العربية، وراح يتطلع إلى الآفاق البعيدة، إلى حيث
ترزح الأمم تحت نير الظلم والقهر والعبودية. وإذا كان هناك مصدر
للقلق فهو في حدود الجزيرة الشمالية حيث جيوش هرقل، لا تنفك
تنظر إلى الجنوب وتنتظر الفرص؛ أما فارس فقد بدأت تضمحلّ من
الداخل حيث الصراع من أجل العرش على أشده (١).

وفي تلك الأيام ظهر الأسود العنسي وهو كاهن مشعوذ في اليمن
فانتهاز وفاة الوالي الفارسي المسلم باذان وأعلن النبوة، ولم يولّه النبي ﷺ
اهتماماً يذكر؛ لعلمه بتفاهته. ومضى النبي يعبئ قواته تحت قيادة أسامة
بن زيد الشهيد، ومن بواعث اصرار النبي على انفاذ جيش أسامة رغم

١- أقدم شيرويه وهو ابن كسرى الثاني (ابرويز) على خلع أبيه من العرش وجمع اخوته
وأبناءهم وقام بتصفيتهم جميعاً ولم ينج من المذبحة سوى (يزدجرد) بن شهریار،
ومات بالطاعون بعد عامين، فخلفه على العرش ابنه الصغير اردشیر، وكان عمره
آنذاك سبعة اعوام ولكنه ما لبث أن لقي مصرعه على يد أحد القادة.

تدهور صحته واضطراره إلى ملازمة الفراش أن الدولة الرومانية قد بدأت حملة واسعة لمطاردة رعاياها من الذين اعتنقوا الإسلام وفي طليعتهم والي معان في الشام فروة بن عمرو الجذامي الذي سبق أن بعث برسالة إلى النبي يعلن فيها اعتناقه الإسلام، فقد شعر الرومان بالغضب وجندوا حملة عسكرية فألقي القبض عليه وألقي في أحد سجونهم بفلسطين وسرعان ما حكم بالإعدام ونفذ الحكم صلباً.

وكانت أكبر مشكلة واجهها النبي ﷺ في إنفاذ هذا الجيش هو تدمير بعض الصحابة من تحمل قيادة أسامة الذي كان شاباً لم يتجاوز العشرين بعد، ومن المؤسف جداً أن عقدة الجاهلية ماتزال فاعلة في النفوس والتي ترى الأكبر هو الأفضل دائماً، وقد طفت هذه العقد فوق السطح منذ تعيين عتاب بن أسيد والياً على مكة بعد تحريرها من براثن الوثنية.

وتدهورت صحة الرسول ﷺ حتى بات يخشى عليه، وبالرغم من كل ذلك ازداد إصراره على تجريد الحملة العسكرية بقيادة أسامة، وهكذا تحرك الجيش الإسلامي وغادر المدينة، وكلمات النبي ماتزال تدوي في ذهن القائد الشاب، فمهمته أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء وأرض الروم في فلسطين على مقربة من مؤتة، حيث استشهد والده زيد، وأن يتم كل ذلك بسرعة وعلى طريقة الحرب الخاطفة.

وواجه أسامة صعوبة شديدة في تذليل العقبات التي واجهته خاصة وقد أعلن بعض وجوه الصحابة استياءهم، وهكذا عسكر الجيش في منطقة الجرف قريباً من المدينة المنورة؛ ريثما ينجلي الموقف.

ومن المؤكد أن إصرار النبي على الحملة العسكرية مع علمه بدنو أجله، وحشد أجلة كبار الصحابة تحت لواء أسامة واستثناء علي بن أبي طالب يشير إلى شعور النبي ﷺ بأن هناك ما يدور في الخفاء؛ ومن هنا حاول النبي إفراغ المدينة من التيارات والتكتلات التي باتت تعمل بخفاء من أجل الاستيلاء على الخلافة بعد غياب النبي ﷺ.

لهذا أراد الرسول ﷺ تمهيد الأمور أمام الوصي من بعده الذي تم تنصيبه من قبل السماء في آخر البلاغات الإلهية في منطقة «غدير خم» في طريق العودة من حجة الوداع.

وفي ضوء هذه النظرية يمكن تقديم تفسيرات مقنعة لكل الحوادث التي رافقت تدهور صحة النبي ﷺ وما أعقب ذلك من حوادث بعد وفاته ﷺ.

إذا الشمس كورت

أشرقت شمس يوم الاثنين حزينة كعين تنتحب. لقد اقتربت الساعة، وأن لآخر الأنبياء أن يرحل.. أن يودّع الدنيا الفانية إلى عوالم مفعمة

بالسلام.

- هَبَّتْ فاطمة الزهراء عليها السلام من نومها مذعورة .. لقد أفزعتها الرؤيا...
- كانت قد رأت مصحفاً يفلت من بين يديها ويطير في السماء،
ورأت فاطمة نفسها تطير وراءه .. وكان القرآن ينادي:
- هلمي إليّ .. هلمي إلى السماء ونظرت فاطمة وراءها فرأت الأرض
زيتونة مشحونة بالبروق والرعود.
- وجاءت إلى أبيها تسعى؛ قالت:
- يا أبتى إني رأيت قرآناً يسقط من يدي.
- قال الذي عنده علم الكتاب:
- يا فاطمة يوشك أن أدعى فأجيب .. وقد عرض عليّ جبريل القرآن
هذا العام مرتين.
- تجمعت في عينيها الدموع .. ضرب الحزن أطنابه في القلب
الكسير .. ودق أوتاد خيامه.
- قال الأب ليسرّي عن ابنته .. عن ذكره من خديجة:
- لا تحزني .. أنت أول أهل بيتي لحوقاً بي.
- أشرقت شمس الأمل .. وجدت لها طريقاً خلال الغيوم فعادت

البسمة تموج فوق وجه أزهري.

آه منك «يا يوم الاثنين»^(١)، لقد رحل زمن السلام، كان علي يعتنق الرجل الذي ربّاه صغيراً وعلمه كبيراً وفتح له أبواب الملكوت .. والنبي يشدّ على يد فتى شرى روحه لله والرسول .. والله وحده الذي يراقب الأعماق.

بدا علي كالمذهول، ودّ لو يقيه بروحه، فالحياة مريّة دون محمد، وما أحلى الموت معه أو دونه.

ومرّت اللحظات متسارعة عنيفة كدقات قلب أوهنته الحمى ..

النبي ينوء بنفسه، يصغي إلى ملائكة الرحمة ولكن أهل الأرض عن السمع لمحجوبون .. لم يسمعوا شيئاً سوى كلمات هي آخر ما حفظته الأرض من ميراث السماء:

- بل الرفيق الأعلى.

١- عبارة ترددت عبر التاريخ على السنة العشرين إذ يعتقد أهل البيت (عليهم السلام) ان محنتهم بدأت يوم الاثنين وهو اليوم الذي صادف وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله)، ففي خطاب لزینب بنت علي (عليها السلام) بعد مصرع أخيها الحسين في مذبحه كربلاء سنة ٦١ هـ جاء فيه: بأبي من اضحى معسكره يوم الاثنين نهياً.

وهتفت جارية لابي الحسن علي الهادي الامام العاشر من ائمة اهل البيت إثر وفاته مسموماً على يد المعتز الخليفة العباسي سنة ٢٥٤ هـ، هتفت وهي تنتحب: ماذا لقينا منك يا يوم الاثنين!

وانطلق محمد نحو الرفيق الأعلى .. إلى عالم مفعم بالسلام .. يعبر
السموات مخلّفاً جسده بين ذراعي علي .. وقد هبّت العاصفة.

هل كان الجوّ صحواً،
فالشمس تغمر الأشياء بالدفع والنور؟
هل كان غائماً فبدأت السحب في زرقة السماء
سفناً مبحرة؟ أم تراكمت فيها جبال، وبحيرات وتلال
وخلجان؟
هل اشتعلت البروق، ودوّت الرعود ذلك اليوم، هل كان
محمد في أحضان الغار أم على سفح الجبل بين
صخور حراء.
لا يعلم المرء، ما حصل في تلك اللحظات
المثيرة .. يوم هبط الملاك يحمل
كلمات السماء.

كلمت



الموقع الرسمي